سلسلة

المرأة في الأدب العربي

(٢)

نساء عاشقات

إعداد

إيهاب صبيح محمد زريق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كتبت المرأةُ على صفحات تاريخ البشرية أسطراً من نـور، وأمجـاداً لا حصر لها، وضُرب بهن الأمثال، وذكر الله تعالى عفافهن في القرآن الكريم فقـال: "ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصـدقت بكلمـات ربها وكتبه وكانت من القانتين[١]"؛ وكيدهن فقال: "قال رب السجن أحبّ إلـيَّ ممـا يدعونني إليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصبَ إليهن وأكن من الجاهلين * فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم[٢]". وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهن: "استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوان[٣] عندكم".

وجاء في الأثر: "النظر إلى الوجه الحسن يجلو البصر، والنظر إلى الوجه القبيح يُورِثُ الفلج[٤]". ورُوى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال: "مِنْ عشق فعفَّ فمات فهو شهيد[٥]"، وقال صلى الله عليـه وسلم: "إن من البيان لسحرا[٦]".

وقيل أن عيسى عليه الصلاة والسلام لقي إبليس وهو يسوق أربعة أحمـرة عليها أحمال، فسأله فقال: أحمل تجارة وأطلب مشترين.

فقال: ما أحدها؟

قال: الجور[٧].

قال: مَنْ يشتريه؟

---

[١]- سورة التحريم، الآية (١٢).

[٢]- سورة يوسف، الآيات (٣٣-٣٤).

[٣]- عوان: أي أسيرات عندكم.

[٤]- الفلج: نوع من الشلل. أنظر أخبار النساء لابن الجوزي ص٢٤.

[٥]- ذكره الشوكاني في "الفوائد المجموعة" ص٢٥٥، الحديث رقم ١١٤.

[٦]- أخرجه أحمد في "المسند" ج١ ص ٣٠٩.

[٧]- الجور: الظلم.

قال: السلاطين.

قال: ما الثاني؟

قال: الحسد.

قال: فمنْ يشتريه؟

قال: العلماء.

قال: فما الثالث؟

قال: الخيانة.

قال: فمنْ يشتريها؟

قال: التجار.

قال: فما الرابع؟

قال: الكيد.

قال: فمن يشتريه؟

قال: النساء[1].

ورصد فحول الأدباء من أمثال ابن عبد ربه في كتابه "العقد الفريد"، والأصفهاني في "الأغاني"، وابن القيم الجوزي في "أخبار النساء"، وابن طيفور في "بلاغات النساء"، والمسعودى في "مروج الذهب"، والثعالبي في "فقه اللغة وأسرار العربية"، والأبشيهي في "المستطرف"، وابن قتيبة في "عيون الأخبار"، وغيرهم من الأدباء حياة المرأة، فسجلوا حلوها ومرها، ودوّنوا طرائف النساء وبلاغتهن، وفائهن وغدرهن، عفتهن وعشقهن، ووصفوا حُسْنهن وجمالهن، وساقوا في ذلك القصص والحكايات والأخبار في كتبهم.

ولأن كل كتاب من هذه الكتب اشتمل على مواقف معينة من حياة المرأة دون غيرها، ولم يضم أيًّا منها بين ضفتيه هذه المواقف مجتمعة في كتاب، فقد رأيت أن أقوم بجمع شتات ما كتبه أساطين الأدب العربي من العصر الجاهلي إلى

[1]- المستطرف ج٢ ص ٣٥٤ – ٣٥٥.

العصر الفاطمي والمملوكي في سلسلة واحدة متحرياً فيما كتبت دقة النقل، وإيضاح المعاني الخفية والغريبة من ألفاظ اللغة، ومترجماً لكثير من أعلام الرجال والنساء الوارد ذكرهم في كتب السلسلة، ومراعياً أيضاً حذف ما يخدش الحياء من ألفاظ، وما يثير الغلمة[١] من عبارات. ومن ثمَّ لم أُورد القصص التي تحتوي على وصف فاضح للمرأة كوصف الشاعر النابغة الذبياني "للمتجردة" امرأة النعمان بن المنذر في كتاب "العقد الفريد".

وقد قسمت هذه السلسلة إلى أربعة كتب ضمّنت كل كتاب منها أبواباً متناسقة ومتجانسة مع بعضها البعض، وذكرت فيها جميعاً قصصاً وحكايات وأخباراً وأقوالا ونوادر لعبت المرأة فيها إلى جانب الرجل دوراً رئيسياً، وترتبط ارتباطاً وثيقاً بعواطف المرأة والرجل لأن كلاً منهما مكمل للآخر، وتوخيت أن أختار من كل ذلك ما فيه المتعة والفائدة قدر الإمكان.

يتضمن الكتاب الأول ستة أبواب تنم عناوينها على مضمونها، فالباب الأول في "وصف المرأة" ويشمل ما قيل في أوصاف المرأة المحمودة، وشرار النساء، وأنواع النساء، والحُسْن والجمال في المرأة... فقد أحبَّ العرب الجمال لأنهم يحسون بالحلاوة والعذوبة إحساساً غامضاً لا يقيده قيود ولا تحصره حدود كسواهم من الشعوب التي أُغرمت بالجمال، واتفقوا على أصول معينة للجمال تعارفوا عليها وألحقوا بالأصول فروعاً تتفق وأذواق الأفراد، فلا يكتمل مصنف من كتب الأدب ما لم يضم بين دفتيه شعراً أو نثراً، مقتبساً من أساطين الأدب، أو منقولاً عن الاختصاصيين في فنون الجمال الذين خبروه نظرياً وعملياً، وأدركوا مدى كل صفة من الصفات وميزة من الميزات[٢]. ونحن في هذا الباب ندخل الخِدر[٣] العربي ونتفحص هذه المرأة عن كثب[٤]، نتبين تقاسيم الجمال فيها. والباب الثاني في "غيرة

---

[١]- الغلمة: الشهوة.

[٢]- انظر كتاب "الجواري" للدكتور جبور عبد النور.

[٣]- الخِدر: الستر.

[٤]- عن كثب: عن قرب.

المرأة"؛ وما أكثر القصص التي تُروى في ذلك كغيرة الضرائر! والباب الثالث في "وفاء المرأة"؛ ويحوى كل قصص النساء اللاتي حفظن عهدهن بالوفاء وأغرب القصص التي رُويت في ذلك كوفاء الضرائر. وعلى نقيض ذلك كان موضوع الباب الرابع في "النساء اللاتي نقضن العهد بالوفاء"؛ وهن نساء لم تتمكن من الوفاء بعهودهن لأزواجهن لسبب أو لآخر. وأنهيت الكتاب الأول بباب في "غدر النساء" ، وباب في "كيد النساء"؛ وهما بابان مترابطان معاً، وقد رأيت أن أفصل بينهما لما يتضمنه باب الكيد من حيل ومكائد لا تخطر على قلوب أولى الألباب من الرجال؛ ولكن تلك هي المرأة.

ويتضمن الكتاب الثاني باباً في "عفة المرأة" وباباً في عشقهن بعنوان "نساء عاشقات". وقد اكتفيت بهما لما ذكرت من قصص العفاف، وحكايات الحُب العفيف أو الحُب العذري عند العرب، وهو حبٌّ أُغرم به العربي بعيداً عن شهوة الجسد ومفاتن المرأة، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على سمو الرجل العربي بخلاف الافتراءات التي يُرمى بها. وسردت في هذا الباب قصصاً كثيرة تكشف عن أعماق النفس الإنسانية عند الرجل والمرأة معاً، والتي حدَّ المجتمع وتقاليده في أحيان كثيرة من ظهورها بشكلٍ واضحٍ وجلي نظراً للفروقات الطبقية وللمقامات المؤثرة وللحدود الشرعية التي تفرض على العشاق قيوداً لا يمكن تجاوزها. وبدأت الباب بمقدمة مفصلة عن العشق وما قيل في الهوى والجوى ونبذة عن قبيلة بنى عذرة التي اشتهرت بالحبّ العذري وعُرف باسمها، ورويت أشهر قصص العشاق من أمثال: بثينة وجميل، عزَّة وكُثَيِّر، فوز والعباس ابن الأحنف، ليلى العامرية والمجنون، ليلى الأخيلية وتوبة بن الحمير، ليلى والصحصاح، لبنى وغانم، مي ومضاض ، سلامة الزرقاء والقس، ريا وعمرو بن عود، ريا وعتبة بن الحباب، عقيلة وعمرو بن كعب، عنتر وعبلة، عفراء وعروة، أسماء والمرقش الأكبر، صفوة وإياس، أمّ البنين ووضَّاح اليمن، محبوبة والمتوكل، حبابة وعبد الملك بن مروان، وعنونت كل قصة بأسماء طرفيها إن ذكراً في كتب الأدب، أما باقي القصص فعنونتها بألفاظ أو عبارات وردت بها، شأنها في ذلك شأن القصص التي ذُكرت في جميع أبواب السلسلة، وأنهيت هذا الباب بقصص العشق الإلهي.

والمرأة على امتداد تاريخ العرب كم أثارت من فتنة، وكم أشعلت من حرب ضروس أُريقت بها دماء وأزهقت أرواح، وكم ساهمت في بناء وتعمير وتشييد أو هدم

وتدمير وخراب صروح، وكم سادت من حضارات أو بادت بسبب منها، وكم هدمت مـــن صوامع وبِيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً، وكم من خليفة انشغل عن أمور الخلافة بجارية أخذت بعقله وسيطرت على تفكيره حتى مات كمدا عليها، وكم نظمت مـــن الشعر وخاضت بحوره، وكم نطق لسانها بعبارات البلاغة والفــصاحة والبيـــان... تلـــك الأدوار التي لعبتها المرأة هي موضوع الباب الأول من الكتاب الثالث، وبلاغـــتهن هـــي موضوع الباب الثاني منه.

وأنهيت هذه السلسلة بكتاب يتناول طرائف النساء والجـــواري والأعرابيـــات ... حكايات ممتعة ومواقف نادرة، ولطائف ندية خفيفة الدم والروح، تروِّح عن قلب الإنـــسان وتخفف عنه متاعب الحياة وهموم الدنيا... نوادر في الحُسْن والجمال، والقبح، والدمامـــة، والزواج، والجماع، والطلاق، والبخل، والمأكل والمشرب، ونوادر تنم عن ذكـــاء المـــرأة وخفة دمها. ويعد هذا الكتاب بداية لسلسلة جديدة لنا بعنوان "النوادر والطرائف والظرفـــاء" سوف يتم نشرها عقب هذه السلسلة إن شاء الله.

والجدير بالذكر أنني لم أتعرض من قريب أو من بعيد لنساء النبي صلى الله عليه وســـلم، فهن أمهات المؤمنين وأطهر وأجلّ وأعظم من أن أضعهن جنباً إلى جنب مع غيرهن مـــن النساء، وحقهن إن أراد كاتبٌ أن يخط بيمينه شيئاً من ذكرهن أن يخصص لهـــن كتابـــاً أو كتباً بذاتها.

وتبقى المرأة هي المرأة، مخلوقاً له عالمه الخاص، وتراثاً كـــاملاً مـــن القـــيم الإنـــسانية، وسلسلة متصلة الحلقات من مشاعر الحبّ والعشق وعواطف الإعراض والصد والجفاء أو عواطف الإقبال والوفاء، ووجهاً من وجوه الحياة والمصير، ودنيا مليئة بالوعي وزاخـــرة بالمشاعر، سلوة الرجل، وغذاءه الروحي والجسدي، ونصفه الذي لا يكتمل بدونه، بقربهـــا تصفو الحياة ويصلح العمر.

إنَّ هذه السلسلة جهدٌ متواضعٌ أضعها بين يدي القارئ الكريم راجياً أن يجد فيهـــا المتعـــة والفائدة المرجوة.

والله من وراء القصد ،،،،،،

إيهاب صبيح زريق

الباب الأول

عفة المرأة

*جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أربع من النساء في الجنة وأربع في النار، فأما الأربع اللواتي في الجنة: فامرأة عفيفة طائعة لله وزوجها، ولود صابرة قانعة باليسير مع زوجها، ذات حياء إنْ غاب عنها حفظت نفسها وماله صابر، وإنْ حضر أمسكت لسانها عنه. والرابعة امرأة مات عنها زوجها ولها أولاد صغار فحبست نفسها على أولادها وربتهم وأحسنت إليهم ولم تتزوج خشية أن يضيعوا.

وأما الأربع اللواتي في النار من النساء: فامرأة بذيئة اللسان على زوجها، إنْ غاب عنها زوجها لم تصن نفسها، وإنْ حضر أذنه بلسانها، والثانية امرأة تكلف زوجها ما لا يطيق، والثالثة امرأة لا تستر نفسها من الرجال، وتخرج من بيتها متبرجة، والرابعة امرأة ليس لها هم إلا الأكل والشرب والنوم وليس لها رغبة في الصلاة ولا في طاعة الله ولا طاعة رسوله ولا في طاعة زوجها[1] ".

حملتني عليه الحاجة

*وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: لقد سمعت من رسول الله صلى عليه وسلم حديثاً لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين حتى عدّ سبع مرات ما حدثت به، ولكن سمعته أكثر من ذلك قال: "كان ذو الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارا على أن يطأها فلما قعد منها مقعد الرجل من المرأة أُرْعِدَت وبكت فقال: ما يبكيك أكرهتك؟ قالت: لا ولكن هذا عمل لم أعمله قط ! قال: فتفعلين هذا ولم أعمله قط! قال: فتفعلين هذا ولم تفعليه قط؟ قالت: حملتني عليه الحاجةُ، فتركها ثم قال: اذهبي والدنانيرُ لك، ثم فقال: والله لا يعصي الله ذو الكفل أبداً فمات من ليلته فأصبح مكتوباً على بابه غفر الله لذي الكفل"[2].

---

[1]- كتاب الكبائر للذهبي ص ٢٠٧ .

[2]- رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح. روضة المحبين ص٣٢٣ .

بقي باب لم أغلقه

*وذكر إبراهيم بن الجنيد: أن رجلاً راود امرأة عن نفسها، فقالت له: أنت قد سمعت القرآن والحديث فأنت أعلم. قال: فأغلقي الأبواب فأغلقتها، فلما دنا منها قالت: بقي باب لم أغلقه، قال: أي باب؟ قالت: الثالث الذي بينك وبين الله، فلم يتعرض لها[١].

سحابة التقوى

*وذكر بكر بن عبد الله المزني أن قصاباً ولع بجارية لبعض جيرانه، فأرسلها أهلها إلى حاجة في قرية أخرى، فتبعها فراودها عن نفسها فقالت: لا تفعل، لأنا أشد حباً لك مني، ولكني أخاف الله، قال: فأنت تخافينه وأنا لا أخافه؟ فرجع تائباً، فأصابه العطش حتى كاد ينقطع عنقه فإذا هو برسول لبني إسرائيل، فسأله فقال: ما لك؟ قال: العطش، فقال: تعال حتى ندعو الله حتى تظلنا سحابة حتى ندخل القرية، قال: ما لي من عمل فأدعوه، قال: فأنا أدعوه وأمِّن أنت، فدعا وأمَّن الرجل، فأظلتهما سحابة حتى انتهيا إلى القرية، فذهب القصاب إلى مكانه، فرجعت السحابة معه، فرجع إليه الرسول فقال: زعمت أن ليس لك عمل وأنا الذي دعوت وأنت أمَّنت، فأظلتنا سحابة ثم تبعتك، لتخبرني ما أمرك، فأخبره، فقال الرسول: إن التائب إلى الله بمكان ليس أحد من الناس بمكانه[٢].

ما كنت تصنع؟

*قيل لأعرابي: ما كنت تصنع لو ظفرت بمنْ تهوى؟ قال: كنت أمتع عيني في وجهها، وقلبي من حديثها، وأستر منها ما لا يحبه الله ولا يرضي بكشفه إلا عند حله[٣]. قيل: فإن خفت أن لا تجتمعاً بعد ذلك؟ قال: أكِلُ[٤] قلبي إلى حبها، ولا أصير بقبيح ذلك الفعل لي نقض عهدها[٥].

---

[١] – روضة المحبين ص ٣٩٥ .

[٢]– المرجع السابق ص٤٥٠ .

[٣]– حله: أي عندما يصبح حلالاً .

[٤]– أكل: أي أوكل .

[٥]– أخبار النساء لابن الجوزي ص٤٤ .

كأنه أشهد على نكاحها أبا هريرة!

*وعن محمد بن يحيى المدني قال: سمعت بعض المدنيين يقول: كان الرجل إذا أحبَّ الفتاة يطوف حول دارها حولاً يفرح أن يرى من يرها، فإن ظفر منها بمجلس تشاكياً وتناشداً الأشعار، واليوم هو يشير إليها وتشير إليه، ويعدها وتعده، فإن التقيا لم يتشاكيا حباً، ولم يتناشدا شعراً، بل يقوم إليها ويجلس بين شعبتها كأنه أشهد على نكاحها أبا هريرة.

عشق وعفاف

*وقيل لرجل، وقد زُفت عشيقته على ابن عم لها: أيسرَك أن تظفر بها الليلة؟

قال: نعم والذي أمتعني بحبها وأشقاني بطلبها.

قيل: فما كنت صانعاً بها؟

قال: كنت أطيع الحب في لثمها، ولا أفسد عشق عشرين سنة بما يبقى ذميم عاره، وينشر قبيح أخباره، إني إذن للئيم لم يلدني كريم[1].

لحظٌ قليل

*قيل لبعض الأعراب، وقد طال عشقه لجارية: ما أنت صانع لو ظفرت بها ولا يراكما غير الله؟ قال: إذا، والله لا أجعله أهون الناظرين، لكني أفعل بها ما أفعل بحضرة أهلها، حديثُ يَطول، ولحظٌ كليل[2] وترك ما يكرهه الرب، وينقطع به الحب[3].

جزاء العفاف

*ودخل مهدي على بعض ولاة اليمامة، فسأله الوالي عن مجلسه مع "ظبية"، واستنشده ما قال فيها من الشِعر. وكان ابن ظبية حاضراً، فأنشده مهدي

---

[1]- المستطرف ج٢ ، ص ٢٥٥ .

[2]- اللحظ الكليل: العين الفاترة التي فيها انكسار .

[3]- أخبار النساء ص ٥٠ .

بيتين يصفها فيهما بالعفاف، فقام ابنها فنزع عن نفسه جُبَّة خَزّ[1] ووشاحاً ألقاهما على مهدي لما وصف أمه بالعفاف[2].

ما أشغله بالعمى عن كل شيء!

*ونزل رجل على صديق له مستتراً خائفاً من عدو له، فأنزله في منزله وتركه فيه وسافر لبعض حوائجه وقال لامرأته: أوصيك بضيفي خيراً.

فلمَّا عاد بعد شهر قال لها: كيف ضيفنا؟ قالت: ما أشغله بالعمى عن كل شئ. وكان الضيف قد أطبق عينيه فلم ينظر إلى امرأة صاحبه ولا إلى منزله إلى أن عاد من سفره[3].

قُبلة مشتاق

*وحكى أبو الحسن المدايني[4] قال: هوي بعض المسلمين جارية بمكة فأرادها، فامتنعت عليه، فأنشدها:

سألت الفتى المكيَّ هل في تزاور ... وقُبلة مشتاق الفؤاد، جناح؟[5]

فقال:

معاذ الله أن يذهب الهوى ... تلاصق أكباد بهن جراح

قالت له: بالله، إنك سمعته وسألته فأجابك بهذا الجواب؟ قال: نعم فزارته وجعلت تقول: إياك أن تتعدى ما أمرك به عطاء[6].

---

[1]- الخز: الحرير.

[2]- المرجع السابق ص ٣٩ .

[3]- المستطرف ج٢ ص ٢٥٣ .

[4]- راوية ومؤرخ كثير التصانيف، من أهل البصرة ، سكن المدائن ، وتوفى فى بغداد سنة ٢٢٥هـ .

[5]- الفتى المكي: يقصد به عطاء بن أبى رباح ، والجناح: الذنب والإثم .

[6]- أخبار النساء لابن الجوزي ص ٤٣ – ٤٤ .

دعْ أحدهما تنلْ الآخر

*وكان بعض السلف يطوف بالبيت فنظر إلى امرأة جميلة، فمشى إلى جانبها ثم قال:

أهوى هوى الدين واللذات تعجبني

فكيف لي بهوى اللذات والدّين

قالت: دعْ أحدهما تنلْ الآخر[1].

ما حدّثت نفسي بريبة قط

*وعن أبي سهل الساعدي قال: دخلت على جميل وبوجهه آثار الموت فقال لي: يا أبا سهل إن رجلاً يلقى الله ولم يسفك دما، ولم يشرب خمراً، ولم يأت فاحشة أفترجو له الجنة؟ قلت: إي والله فمن هو؟ قال: إني لأرجو أن أكون ذلك. فذكرت له بثينة فقال: إني لفي آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة لا نالتني شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم إن كنت حدّثت نفسي بريبة قط[2].

خوف العار

*وقيل لمية[3]، بعد موت قابوس[4]: ما كان يضرك لو أمتعته بوجهك قبل موته؟ قالت: منعي من ذلك خوف العار، وشماتة الجار. ولقد كان بقلبي منه أكثر مما كان بقلبه، غير أني وجدت ستره أبقى لنا لما في الصدر من المودة، وأحمد للعافية.

---

[1]- روضة المحبين ص ٤٧٩ .

[2]- المرجع السابق .

[3]- مية بنت عاصم إحدى نساء العرب ، خطبها ذو الرمة الشاعر فأبت التزوج به وكثيراً ما يتشبب الشعراء باسمها .

[4]- غيلان بن عقبة بن مسعود العدوى الملقب بذي الرمة .

أو يحكم الله بيننا

*وقيل لليلى[1] هذا قيس[2] مات لما به من عشقك. قالت: ولقد خفت والله أموت بذلك منه. قيل لها: فما عندك حيلة تخفف ما به؟ قالت: صبري، وصبره، أو يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.

لا سبيل إلى احتمال العار

*وقيل لعفراء[3] وقد بلغها ما نزل بعروة[4]، فكادت تبوح بسرها فقيل لها: أما عندك له حيلة تخفف ما به؟ فقالت: والله، لأنا أَسَرُّ بذلك وأشوق إليه منه، ولكن لا سبيل إلى احتمال العار، ودخول النار[5].

كتمان الحب

*وحكى السري بن المطلب قال: كان الحرث بن الشريد يعشق عفراء بنت أحمر فلما عِيل صبره كتب إليها:

صَبَرْتُ على كتمان حُبِّك برهة   وبي منك في الأحشاء أصْدقُ شاهد
هو الموت إن لم يأتني منك رقعة   تقوم لقلبي في مقام العوائد[6]

فلما وصلت الرقعة كتبت إليه:

كفيت الذي تخشى وصرت إلى المنى   ونلت الذي تهوى برغم الحواسد
فو الله لولا أن يقال تَظَنَّنا   بي السوء ما جانبت فعل العوائد

---

[1]- هي ليلى العامرية حبيبة قيس بن الملوح العامري .

[2]- هو قيس بن الملوح الشاعر الذي جن بحب ليلى وتاه في الصحراء يتغنى بحبه لها إلى أن مات .

[3]- عفراء: هي حبيبة الشاعر عروة بن حزام وابنة عمه.

[4]- هو عروة بن حزام بن مهاجر الضنى ، شاعر من بنى عذرة وحبيب عفراء. انظر قصص هؤلاء العشاق في باب "نساء عاشقات" من هذا الكتاب .

[5]- أخبار النساء ص ٥٢ .

[6]- الرقعة: الرسالة . والعوائد: جمع عائد ، وهو الزائر .

فلما وصلت الرقعة إليه وضعها على وجهه، فلما شم رائحة يـدها شـهق شهقة فقضى نحبه. فقيل لعفراء: ما كان يضرك لو روحـت عـن قلبـه وأجبتـه بزورة؟[1] قالت: منعني من ذاك قولكن عفراء قد صبت إلى الحرث! فو الله لأقـتلن نفسي إثره من حيث لا يعلم بي أحد إلا الله. فلحقت به سريعاً[2].

نظير يوسف الصديق

*ذُكر أنه في بدء الإسلام كان هناك شاب يُقال له "بشر" من بني أسيد بـن عبد العزى، كان يختلف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان في طريقه إلى الرسول الكريم يمر على قبيلة جهينة، وإذا فتاة من جهينة قد نظرت إليـه فعـشقته وكان لها من الجمال والحُسْن حظ وافر، وكان لها زوج يُقال له "سعد بن سـعيد"، فكانت الفتاة تقعد كل غداة لبشر يجتاز بها لينظر إليها. فلما أخذها حبه كتبت إليه:

تمر ببابي ليس تعلم ما الذي ... أعالج من شوق إليك ومن جُهد

فديتك فانظر نحو بابي نظرة ... فإنك أهوى الناس كلهم عندي

فأجابها الفتى يقول:

عليك بتقوى الله والصبر إنه ... نهى عن فجور بالنساء موحد

وصبراً لأمر الله لا تقربي الذي ... نهى الله عنه والنبي محمد

فوالله لا آتى حليلة مسلم ... إلى أن أدلى في القبور وأفقد

فلا تطمعي في أن أزورك طائعاً ... وأنت لغيري بالخناء معّود

فأجابته الفتاة تقول:

أمرت بتقوى الله والصبر والتقى ... فكيف وما لي من سبيل إلى الصبر

والله ما أدعوك يا حب للذي ... تظن ولكن للحديث وللشعر

---

[1]- زورة: أي زيارة.

[2]- المرجع السابق ص ٥٣ .

وكي نتداوى ما تراكد داؤه   من الشوق والحب الذي لك في صدري

فأجابها الفتى يقول:

منع الزيارة أن أزورك طائعاً   أخشى الفساد إذا فعلتُ فتعتدي

أخشى دنواً منك غير محلل   فأكون قد خالفت دِين محمد

فأخاف أن يهواك قلبي شارفاً   فيكون حتفي بالذي كسبت يدي

فالصبر خير عزيمة فاستعصمي   وإلى إلهك ذي المعارج فاقصدي

وعليك ياسين فإن بدرسها   تنقى الهموم وذاك نفسك عودي

فأجابته الفتاة تقول:

لعمرك ما ياسين تغنى من الهوى   وقربك من ياسين أشهى إلى قلبي

فلما قرأ "بشر" هذه الأبيات غضب غضباً شديداً وحلف لا يمر بباب "هند" ولا يقرأ لها كتاباً فلما امتنع كتبت إليه تقول:

سألت ربى فقد أصبحت لي شَجَناً   أن تُبتلي بهوى من لا يباليكا

حتى تذوق الذي قد ذقت من نَصَب   وتطلب الوصل ممن لا يؤاتيكا

فلما لجّ "بشر" وترك الممر ببابها، أرسلت إليه بوصيفة لها فأنشدته هذه الأبيات، فقال للوصيفة: لأمرٍ ما لا أمرٌ.

فلما جاءت الوصيفة أخبرتها بقول بشر فكتبت تقول:

كفِّر يمينك إن الذنب مغفور   واعلم بأنك إن كفَّرت مأجور

فلما لجَّ بشر وترك الممر ببابها، اشتد عليها ذلك فمرضت مرضاً شديداً فبعث زوجها إلى الأطباء، فقالت: لا تبعث إلى طبيباً فإنني عرفت دائي، فهرني جنى في مغتسلي فقال لي تحولي عن هذه الدار فليس لك في جوارنا خير.

فقال لها زوجها: فما أهون هذا.

فقالت: إني رأيت في منامي أن أسكن بطحاء تراب.

قال لها: اسكني بنا حيث شئت.

فاتخذت داراً على طريق بشر، فجعلت تنظر إليه كل غداة إذا غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى برأت من مرضها وعادت إلى حُسْنها.

فقال لها زوجها: إني لأرجو أن يكون لك عند الله خير لما رأيت في منامك فأكثري من الدعاء.

وكانت مع هند في الدار عجوز فأفشت إليها أمرها، وأخبرتها أنها خائفة إن علم بشر بمكانها يترك الممر في طريقة ويأخذ طريقاً أخر.

فقالت لها العجوز: لا تخافي، فإني أعلم لك أمر الفتى كله، وإن شئت أقعدتك معه ولا يشعر بمكانك.

قالت: ليت ذاك قد كان.

فقعدت العجوز على باب الدار، فلما أقبل بشر قالت له العجوز: يا فتى هل لك أن تكتب لي كتاباً إلى ابن لي بالعراق.

قال بشر: نعم.

فقعد يكتب والعجوز تُملي عليه، وهند تسمع كلامهما. فلما فرغ بشر قالت العجوز له: إني لأظنك مسحوراً.

قال بشر: وما أعلمك بذلك؟

قالت له: ما قلت لك حتى علمت فمن الذي تتهم؟

قال لها: إني كنت أمر على جهينة وإن قوماً منهم كانوا يرسلون إليَّ ويدعونني إلى أنفسهم ولست أمنهم أن يكونوا قد أضمروا لي شراً.

فقالت العجوز: انصرف اليوم حتى أنظر في أمرك.

فلما انصرف دخلت المرأة إلى هند فقالت: هل سمعت ما قال؟

قالت: نعم.

قالت: أبشري فإني أراه فتى حدثاً لا عهد له بالنساء، ومتى أتى زينتك وطيبتك وأدخلتك عليه، فتغلب شهوته دينه. فانظري أي يوم يخرج زوجك إلى

القرية فأخبريني.

فسألت هند زوجها، فأخبرها أنه خارج يوم كذا وكذا. وأخبرت هند العجوز وواعدت بشراً ميعاداً لتنظر في أمره.

فلما جاء الوقت المعلوم، جاء بشر إلى العجوز فقالت: إني شاكية لست أقدر أعمل النشرة ولكن بيتي أستر عليك. فدخل معها البيت وجاءت هند خلفها فدخلت البيت على بشر، فلما دخلت خرجت العجوز وغَلَّقت الأبواب عليهما.

وجاء زوج هند – في ذلك الوقت – من الضيعة، حتى دخل داره، فوجد مع امرأته رجلاً في البيت فطلقها. وذهب بالفتى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا نبي الله سَلْ هذا بأي حق دخل دارى وجامع زوجتي؟

فبكى بشر وقال: والله يا رسول الله ما كذبتك منذ صدقتك، وما كفرت بالله منذ أمنت شهدت أن لا إله إلا الله.

فقصَّ على النبي صلى الله عليه وسلم قصته فبعث النبي إلى العجوز وهند فحضراً وأقرا بين يديه.

فقال النبي: "الحمد لله الذي جعل من أمتي نظير يوسف الصديق".

ثم قال لهند: استغفري لذنبك وأدب العجوز وقال لها: أنت رأس الخطيئة.

فرجع بشر إلى منزله، وهند إلى منزلها، فهاج بشراً حبّ هند، فسكت حتى إذا قضت عدتها بعث إليها يخطبها.

فقالت: لا والله لا يتزوجني وقد فضحني عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مرض من حبها وعاد إليها الرسول فقال أنه مريض وإنك إن لم تفعلي ليموتن.

فقالت: أماته الله، فطالما أمرضني.

واشتد المرض على بشر، وبلغ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أمره فأقبلوا إليه يعودونه. وقال أحدهم أنا أرجو أن يعذب الله هنداً.

وشهق الشاب شهقة فمات رحمة الله. فلما سمعت هند بالخبر وذهبت تعزى أخته، صرخت صرخة ووقعت ميتة – رحمها الله.

وذهب بها فدُفنت مع بشر. فلما مضت أيام جاءت العجوز إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت:

"يا رسول الله أنا رأس الخطية كما قلت، أنا الذي كنت سبب الأمر،وقد خشيت أن لا تكون لي توبة".

فقال النبي: "استغفري لذنبك وتوبي، فإن الله تعالى يقبل التوبة النصوح".

مخافة الله

*عن سعيد بن جبير قال:كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا أمسى أخذ دِرته ثم طاف بالمدينة، فإذا رأى شيئا ينكره أنكره، فبينما هو ذات ليلة يَعُسُّ إذ مرّ بامرأة على سَطْحٍ وهى تقول:

تطاول هذا الليل واخْضَلَ جانبه	وأرقني أن لا خليل ألاعبه
فو الله لولا الله لا رب غيره	لحرك من هذا السرير جوانبه
مخافة ربى والحياة يصدني	وأكرم بعلي أن تناول مراكبُه

ثمَّ تنفست الصعداء وقالت: لَهَان على عمر بن الخطاب ما لقيت الليلة، فضرب باب الدار فقالت: من هذا الذي يأتي إلى امرأة مغيبة هذه الساعة؟ فقال: افتحي، فأبت، فلما أكثر عليها قالت: أما والله لو بلغ أمير المؤمنين لعاقبك، فلما رأى عفافها قال: افتحي، فأنا أمير المؤمنين، قالت: كذبت ما أنت أمير المؤمنين، فرفع بها صوته وجهر لها فعرفت أنه هو ففتحت له فقال: هيه كيف قلت؟ فأعادت عليه ما قالت، فقال: أين زوجك؟ قالت: في البعث. فبعث إلى عامل ذلك الجند أن سرح فلان بن فلان، فلما قدم عليه قال: اذهب إلى أهلك.

ثم دخل على حفصة ابنته فقال: أي بنيه كم تصبر المرأة عن زوجها؟ قالت: شهر أو اثنين وثلاثة وفي الرابع ينفذ الصبر، فجعل ذلك أجلا للبعث[1].

---

[1]- روضة المحبين ص ٢١٠ .

تطاول الليل

*ذكر ابن عساكر في "تاريخ مدينه دمشق" قال:

ضرب عبد الملك بن مروان بعثا إلى اليمن فأقاموا سنين حتى إذا كان ذات ليلة وهو بدمشق قال: والله لأعُسَنَّ الليلة مدينة دمشق، ولأسمعنَّ الناس ما يقولون في البعث الذي أَغْزيْتُ فيه رجالهم، وأغرمت فيه أموالهم. فبينا هو في بعض أزقتها إذا هو بصوت امرأة قائمه تصلى. فتسَّمع إليها. فلما انصرفت إلى مضجعها قالت: اللهم يا غليظ الحُجُب، ويا مُنْزل الكتب، ويا معطى الرَّغب[1]، ويا مؤوي الغُرْب، ويا مُسير النُجُب[2]، أسألك أن تُؤدى غائبي فتكشف به همي، وتصفي به لذتي، وتُقر به لذّتي، وتُقر به عيني، وأسألك أن تحكم بيني وبين عبد الملك بن مروان الذي فعل بنا هذا، فقد صيَّر الرجل نازحاً، والمرأة مُتقلقلة على فراشها. ثم أنشأت تقول:

تطاول هذا الليل فالعين تدمع	وأرقني حزني فقلبي مُوجع
فبتُّ أقاسي الليل أرعى نجومه	وبات فؤادي عانيا يتفرع
إذا غاب عنها كوكب في مغيبه	لمحت بعيني آخرا حين يطلع
إذا ما تذكرت الذي كان بيننا	وجدت فؤادي للهوى يتقطع
وكل حبيب ذاكر لحبيبه	يرجى لقاه كل يوم ويطمع
هذا العرش فرج ما ترى من	صبابتي فأنت الذي يدعو العباد فيسمع
صوتك في السرَّاء والضرَّاء دعوة	على حاجة بين الشراسيف تلذع[3]

فقال عبد الملك لحاجبه: تعرف هذا المنزل؟ قال نعم: هذا منزل يزيد بن سنان. قال: فما المرأة منه؟ قال: زوجته.

---

[1]- الرعب: المطلوب والمرغوب فيه .

[2]- النجب: جمع نجيبة ، وهى خيار الإبل.

[3]- الشراسيف: جمع شرسوف ،وهو الطرف اللين من الضلع مما يلي البطن .

فلما أصبح سأل: كم تصبر المرأة على زوجها؟ قالوا: ستة أشهر. فأمر أن لا يمكث العسكر أكثر من ستة أشهر.

"ولمن خاف مقام ربه جنتان"

*أخبر يحيى بن أيوب: أن فتى كان يُعجب به عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال عمر: إن هذا الفتى ليعجبني.. وانه انصرف ليلة من الصلاة العشاء فمثلت له امرأة بين يديه فعرضت له بنفسها، ففتن بها، حتى و قفت على بابها. فلما وقف بالباب أفاق، وتذكر الآية: "إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون"[1].

فخرَّ مغشيا عليه، فنظرت إليه المرأة فإذا هو كالميت، فلم تزل هي و جارية لها تتعاونان عليه حتى ألقوه على باب داره.

وكان لهذا الفتى أب شيخ كبير يقعد في انتظاره كل ليلة.. فخرج العجوز فإذا بابنه ملقى على باب الدار. فلما أفاق سأله أبوه: ما الذي أصابك يا بني؟

قال: يا أبت لا تسألني.

فلم يزل به حتى أخبره، وتلا الآية، وشهق شهقة خرجت معها نفسه، فدفن فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فقال: ألا آذنتموني بموته. فذهب حتى وقف على قبره، فنادى: يا فلان.. "ولمنْ خاف مقام ربة جنتان"[2].

فأجابه الفتى من داخل القبر: قد أعطانيهما ربى يا عمر!

الحمد لله الذي ذمّ الهوى بالتقوى

*وذكر ابن الجوزي في كتاب "تلقيح فهوم الأثر"، عن محمد بن عثمان بن أبى خيثمة السلمي عن أبيه عن جده قال: بينما عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يطوف ذات ليلة في سكك المدينة إذ سمع امرأة تقول:

هل من سبيل إلى خمر فأشربها   أم من سبيل إلى نصر بن حجاج

---

[1]- سورة الأعراف، الآية (٢٠١) .

[2]- سورة الرحمن، الآية (٤٦).

إلى فتى ماجد الأعراق مقتبل سهل المحيا كريم غير ملجاج

تنميه أعراق صدق حين تنسبه أخي وفاء عن المكروب فراج

فقال عمر رضي الله تعالى عنه لا أرى معي بالمدينة رجلاً تهتف به العوائق في خدورهن[1] عليَّ بنصر بن حجاج، فلما أصبح أُتى بنصر بن حجاج فإذا هو من أحسن الناس وجهاً، وأحسنهم شَّعراً.

فقال عمر: عزيمة من أمير المؤمنين لتأخذن من شَّعرك فأخذ من شَعره فخرج من عنده وله وجنتان كأنهما شقتاً قمر فقال له: اعتم، فاعتم، فافتتن الناس بعينيه.

فقال له عمر: والله لا تساكنني بلدة أنا فيها.

فقال: يا أمير المؤمنين ما ذنبي

قال: هو ما أقول لك ثم سيره إلى البصرة، وخشيت المرأة التي سمع منها عمر ما سمع أن يبدر من عمر إليها شئ، فدست إليه المرأة أبياتاً وهى:

قل للإمام الذي تخشى بوادره ما لي وللخمر أو نصر بن حجاج

لا تجعل الظن حقاً أن تبينه إن السبيل سبيل الخائف الراجي

إن الهوى زم بالتقوى فتحبسه حتى يقرّ بالجام وإسراج

قال: فبكى عمر رضي الله تعالى عنه وقال الحمد لله الذي زمّ الهوى بالتقوى.

قال: وطال مكث نصر ابن حجاج بالبصرة، فخرجت أمه يوماً بين الأذان والإقامة متعرضة لعمر فإذا هو قد خرج في إزار ورداء وبيده الدرّة.

فقالت له: يا أمير المؤمنين والله لأقفن أنا وأنت بين يدي الله تعالى وليحاسبنك الله أيبتن عبد الله وعاصم إلى جنبيك وبيني وبين ابني الفيافي والأدوية.

فقال لها: إن ابني لم تهتف بهما العواتق في خدورهن، ثم أرسل عمر إلى البصرة بريداً إلى عتبة بن غزوان فأقام أياماً ثم نادى عتبة من أراد أن يكتب إلى أمير المؤمنين فليكتب فإن البريد خارج.

---

[1]- الخِدر: الستر.

فكتب نصر بن حجاج بسم الله الرحمن الرحيم: سلام عليك يا أمير المؤمنين، أما بعد فاسمع مني هذه الأبيات:

لعمري لئن سيرتني أو حرمتني ... وما نلت من عرضي عليك حرام

فأصبحت منفياً على غير ريبة ... وقد كان لي بالمكتين مقام

لئن غنت الذلفاء يوماً بمنية ... وبعض أماني النساء غرام

ظننت بي الظن الذي ليس بعده ... بقاء ومالي جرمه فالأم

فيمنعني مما تقول تكرّمي ... وآباء صدق سالفون كرام

ويمنعها مما تقول صلاتها ... وحال لها في قومها وصيام

فهاتان حالان فهل أنت راجعي ... فقد جب مني كاهل وسنام

قال: فلما قرأ عمر رضي الله تعالي عنه هذه الأبيات قال: أما ولي السلطان فلا، وأقطعه داراً بالبصرة في سوقها، فلما مات عمر ركب راحلته وتوجَّه نحو المدينة والله سبحانه وتعالى أعلم[1].

أين المهرب؟

*أخبر أحمد بن سعيد عن أبيه قال:

كان عندنا بالكوفة شاب يتعبد ملازماً لمسجد الجامع لا يكاد يخلو منه، وكان حسن الوجه، حسن السمت، فنظرت إليه امرأة ذات جمال وعقل فشغفت به وطال ذلك عليها.

فلما كان ذات يوم وقفت له على طريقه وهو يريد المسجد فقالت له:

يا فتى اسمع منى كلمات أكلمك بها ثم اعمل ما شئت. فمضى ولم يكلمها. ثم وقفت له بعد ذلك على طريقه، وهو يريد منزله فقالت له: يا فتى اسمع منى كلمات أكلمك بها، فأطرق فقال: هذا موقف تهمة وأنا أكره أن أكون للتهمة موضعاً.

فقالت: والله ما وقفت موقفي هذا جهالة منى بأمرك، ولكن معاذ الله أن يتشوف العباد إلى مثل هذا منى، وجملة ما أكلمك به أن جوارحي كلها مشغولة بك. فالله الله في أمري وأمرك!

فمضى الشاب إلى منزله وأراد أن يصلى فلم يعقل كيف يصلى. فأخذ ورقة

---

[1] - المستطرف ج٢ ص٢٥٦-٢٥٧.

وكتب سطوراً ثم خرج من منزله فإذا بالمرأة واقفة في موضعها، فألقى إليها الورقة ورجع إلى منزله مسرعاً.

وكان في الورقة:

"بسم الله الرحمن الرحيم. اعلمي أيتها المـــرأة أن الله تبـــارك وتعـــالى إذا عصى حلم، فإذا عاود العبد المعصية ستر، فإذا لبس لها ملابسها غضب الله عـــز وجل لنفسه غضبة تضيق منها السموات والأرضون والجبال والـــشجر والـــدواب. فمن ذا الذي يطيق غضبه فإن كان ما ذكرت باطلاً فإني أذكرك يوماً تكون السماء فيه كالمهل، وتصير الجبال كالعهن وتجثو الأمم لصولة الجبار العظيم وإني والله قد ضعفت عن إصلاح نفسي فكيف بصلاح غيري؟!"

وإن كان ما ذكرت حقاً فإني أدلك على طبيب هذا، ذلك الله رب العـــالمين فاقصديه على صدق المسألة، فإني متشاغل عنك بقوله عز وجل: "وأنـــذرهم يـــوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين. ما للظالمين من حميم ولا شفيع يُطاع. يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور والله يقضي بالحق"[1] فأين المهرب من هذه الآية؟! ثم جاءت بعد ذلك بأيام فوقفت له عن على طريقه. فلما رآها من بعيد أراد الرجوع إلى منزله لئلا يراها. فقالت:

"يا فتى لا ترجع فلا كان الملتقى بعد هذا أبداً إلا بين يدي الله عـــز وجـــل". وبكت بكاء كثيراً. ثم قالت:

أسأل الله عز وجل الذي بيده مفاتيح قلبك أن يسهل ما قد عسر من أمرك. ثم تبعته فقالت: امنن عليَّ بموعظة أحملها عنك، وأوصني بوصية أعمل بها.

فقال لها الفتى: أوصيك بحفظ نفسك من نفسك، وأذكرك قوله عـــز وجـــل: "وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار"[2] فأطرقت وبكت، ثم لزمت بيتها وأخذت بالعبادة فكانت إذا أجهدها الأمر تدعو الله، وتصلي وكان إذا جن عليها الليل

---

[1] – سورة غافر، الآيات (١٨–٢٠).

[2] – سورة الأنعام، الآية (٦٠).

قامت إلى محرابها فإذا صلت قالت:

يا وارث الأرض هب لي منك مغفرة وحُلَّ عنى هوى ذا الهاجر الداني

وانظر إلى خُلتي يا مشتكي حزني بنظرة منك تجلو كل أحزاني

فلم تزل على ذلك حتى ماتت كمداً وكان الفتى يذكرها بعد موتها ثم يبكــى عليها فيُقال له:

ممّ بكاؤك وأنت قد أيستها؟!

فيقول: إني ذقت طعمها مني في أول أمرها وجعلت قطعها ذخيرة لي عنـد الله عز وجل، وإني لأستحي من الله عز وجل أن أسترد ذخيرة ذخرتها عنده.

إن قلبي عن الفحشاء مصروف

*قال أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله تعالى: بلغني عن بعض الأشـراف أنه اجتاز بمقبرة فإذا جارية حسناء عليها ثياب سواد، فنظر إليها فعلقت بقلبه فكتب إليها:

قد كنت أحسبُ أن الشمس واحدة

والبدرَ في منظر بالحُسْن موصوف

حتى رأيتكِ في أثواب ثاكلةٍ

سودٍ وصدغك فوق الخدّ معطوف

فرحت والقلبُ مني هائمٌ دَنِف

والكبْدُ حَرّي ودمعُ العين مذروف

ردي الجواب ففيه الشكر واغتنمي

وصل المحب الذي بالحب مشغوف

ورمى بالرقعة إليها، فلما قرأتها كتبت:

إنْ كنت ذا حسب زاكٍ وذا نسب

إن الشريفَ بغضِّ الطرف معروف

إن الزُّناة أناس لا خلاقَ لهم

فاعلم بأنك يوم الدِين موقوف

واقطع رجاك لحالك الله من رجل[1]

فإن قلبي عن الفحشاء مصروف

فلما قرأ الرقعة زجر نفسه وقال: أليس امرأة تكون أشجع منك؟ ثم ثاب ولَبس مدْرعة[2] من الصوف والتجأ إلى الحرم، فبينا هو في الطواف يوماً بتلك الجارية عليها دِرع من صوف فقالت له: ما أليق هذا بالشريف، هل لك في المباح؟ فقال: قد كنت أروم هذا قبل أن أعرف الله وأحبه، والآن حُبه عن حُب غيره، فقالت له: أحسنت، ثم طافت وهي تنشد:

فطفنا فلاحتْ في الطواف لوائح

غنينا بها عن كل مَرأى ومَسْمَع[3]

الله في قلبي أعظم

*وخرج رجلٌ من أهل الكوفة في غزاة فكسب جارية وفرساً وكان مملكاً على ابنة عمه فكتب إليها يعيّرها ويقول:

ألا بلغوا أم البنين بأننا — غنينا وأغنتنا الغطارفة النجد

بعيد مناط المنكبين إذ جرى — وبيضاء كالتمثال زينها العقد

فهذا لأيام العدو وهذه — لحاجة نفسي حين ينصرف الجند

فلما ورد عليها كتابه وقرأته قالت يا غلام هات الدواة وكتبت جوابه تقول:

ألا فاقرء مني السلام وقل له — غنينا وأغنتنا غطارفة المرد[4]

إذ شئت أغناني غلام مزجل — ونازعته في ماء معتصر الورد

وإن شاء منهم ناشئ مد كفه — إلى عكن ملساء أو كفل نهدي[1]

---

[1]- لحالك الله : أي قبحك .

[2]- مدرعة: أي ثوب من الصوف وجبة مشقوقة المقدم .

[3]- روضة المحبين ص٤٤٧.

[4]- الغطارفة: جمع غطريف وهو الشاب الظريف ، والمرد : جمع أمرد وهو الشاب الذي طر شاربه ولم تنبت لحيته .

فما كنتم تقضون حاجة أهلكم	شهوداً فتقضوها على التأني والبعد
فعجّل إلينا بالسراج فإنه	مناناً ولا ندعو لك الله بالرد
فلا قفل الجند الذي أنت فيهم	وزادك رب الناس بعداً على بعد

فلما ورد عليه كتابها لم يزد على أن ركب الفرس وأردف الجارية خلفه ولحق بابنة عمه فكان أول شئ بدأها به بعد السلام أن قال لها: بالله عليك هل كنت فاعلة ذلك؟

فقالت له: الله في قلبي أعظم وأجلّ، وأنت في عيني أذلّ وأحقر من أن أعصى الله فيك فكيف ذقت طعم الغيرة فوهب لها الجارية وانصرف إلى الغزاة، والله تعالى أعلم بالصواب[2].

لا يكون ذلك أبدا!

*خرج أبو دهبل[3] يريد الغزو، وكان رجلاً صالحاً وكان جميلاً فلما كان يجيرون[4] جاءته امرأة فأعطته كتاباً وقالت: اقرأ لي هذا الكتاب، فقرأه لها، ثم ذهبت فدخلت قصراً ثم خرجت إليه فقالت: لو بلغت القصر فقرأت الكتاب على امرأة كان لك فيه أجر إن شاء الله، فإنه من غائب لها يعنيها أمره، فبلغ معها القصر، فلما دخلاً إذا فيه جوار كثيرة، فأغلقن القصر عليه، وإذا فيه امرأة وضيئة، فدعته إلى نفسها فأبى، فأمرت به فحُبس في بيت في القصر، وأطعم وأسقي قليلاً قليلاً حتى ضعف وكاد يموت، ثم دعته إلى نفسها فقال: لا يكون ذلك أبداً، ولكني أتزوجك، قالت: نعم فتزوجها، فأمرت به فأحسن إليه حتى رجعت إليه نفسه، فأقام معها زماناً طويلاً لا تدعه يخرج، حتى يئس منه أهله وولده، وتزوج بنوه وبناته، واقتسموا ماله، وأقامت زوجته تبكي عليه حتى عمشت[5] ولم تقاسمهم ماله، ثم إنه قال لامرأته: إنك قد أثمت في وفي ولدي وأهلي، فأذني لي أطالعهم وأعود إليك، فأخذت

---

[1]- العكن والأعكان: الأطواء في البطن من السُّمن، والكفل: العجيزة .

[2]- المستطرف ج٢ ص٣٥١-٣٥٢.

[3]- أبو دهبل: هو وهب بن زمعة، سيد من أشراف بني جمح، وشاعر مجيد .

[4]- يجيرون: بلد في الشام .

[5]- عمشت: ضعف بصرها .

عليه أيماناً ألا يقيم إلا سنة حتى يعود إليها. فخرج من عندها يجر الدنيا [1] حتى قدم على أهله، فرأى حال زوجته وما صار إليه ولده، وجاء إليه ولده فقال لهم، لا والله ما بيني وبينكم عمل، أنتم قد ورثتموني وأنا حي فهو حظكم، والله لا يشرك زوجتي فيما قدمت به أحد، ثم قال لها، شأنك به فهو لك كله، وقال في الشامية:

صاح حيا الإله حيا ودوراً عند أصل القناة من جيرون

"وهي أبيات عدة ".

فلما حلّ الأجل[2] أراد الخروج إليها، فجاءه موتها فأقام[3].

الفتى المتعبد والمتيمة

*حدَّث عبد الواحد بن زياد عن أبيه قال:

سمعت شيخاً من أهل العلم يقول: كان عندنا فتى متعبد حسن السيرة فأحبته جارية من قومه، وكانت تكاتم أمرها مخافة العيب، فمكثت بذلك حيناً، فلما بلغ بهـــا الحُب مبلغاً كبيراً أرسلت إليه بكتاب وضمنته هذه الأبيات:

تطاول كتماني الهوى فأبادني فأصبحت أشكو ما ألاقى من الوجد

فها أنا ذا حرِّي من الوجد صبةٌ كثيرة دمع العين يجرى على خدى

وأرسلته مع امرأة لتسلمه إليه، فقال: ما هذا؟

قالت: كتاب أرسلني به إليك إنسان.

قال الفتى: سميه.

قالت: إذا قرأته سميت لك صاحبه.

فردّه إليها وأنكره إنكاراً شديداً، فقالت له: ما يمنعك من قراءته؟

قال: هذا كتاب قد أنكره قلبي.

فلم تزل به حتى قرأه، ثم رفع رأسه إليها فقال: هذا الذي كنت أحذر وأخاف

---

[1]- يجر الدنيا: أي يحمل خيراً كثير .

[2]- الأجل: الموعد .

[3]- الأغاني ج٧ ص ١٤٢-١٤٣.

ثم دفعه إليها. فقالت المرأة: أما له جواب؟

قال: بلى قالت: وما هو؟

قال: تقولين لها: "إنه يعلم السر وأخفي، الله لا إلــه إلا هــو لــه الأســماء الحسنى"[1].

قالت: لا غير

قال: في هذا كفاية.

فرجعت المرأة إلى الجارية وأخبرتها بما جرى بينهما فكتبت إليه:

يا فارغ القلب من همي ومن فكرى   ماذا الجفاء فدتك النفس يا وطرى

إن كنت معتصماً بالله تخدمه   فإن تحليلنا في محكم السور

فلما وصل إليه الكتاب قال: ما هذا؟

قالت: اقرأه. فأبى، فلم تزل تلطف به، حتى فتحه فقرأه، ثم رده إليها.

فقالت: أما له جواب؟

قال: قولي لها: "وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار"[2]، فرجعت إليها، وأخذتها بما جرى بينهما، فكتبت إليه:

فرِّج عن القلب بعض الهم والكُرب   وجد يوصلك والهجران فاجتنب

إنا سألناك أمراً ما نريد به   إلا الصلاح وأن نلقاك عن قرب

فذهبت المرأة بالكتاب إليه، فأخذه منها وقال لها: اجلسي ففتحه وقرأه عــن آخره وكتب إليها يعظها، ويبين لها حالة وفكرة فقال:

إني جعلتُ همومي ثم أنفاسي   في الصدر منى ولم يظهره قرطاس

ولم أكن شاكياً ما بي إلى أحد   إني إذا لقليل العلم بالناس

فاستعصمي بالله مما قد بليت به   واستشعري الصبر عما قلت باليأس

إني عن الحب في شغل يؤرقني   تذكار ظلمة قبر فيه أرماس

---

[1]- سورة طه، الآية (٧)

[2]- سورة الأنعام، الآية (٦٠).

فلما قرأت الجارية الكتاب، أمسكت، وقالت: إنه لقبيح بالحرة المسلمة العارفة مواضع الفتنة كثرة التعرض للفتن، ولم تعاوده.

حبٌّ يقود إلى خير وإحسان

*ذكر المبرد عن أبى كامل، عن إسحاق بن إبراهيم، عن رجاء بن عمرو النخعي، قال: كان بالكوفة فتى جميل الوجه شديد التعبد والاجتهاد فنزل في جوار قوم من النّخع، فنظر إلى جارية منهن جميلة فهويها وهام بها ونزل بالجارية ما نزل به فأرسل يخطبها من أبيها، فأخبره أبوها أنها مسمّاة لابن عم لها، فلما اشتد عليهما ما يقاسيانه من ألم الهوى أرسلت الجارية: قد بلغني شدة محبتك لي وقد اشتد بلائي بك، فإن شئت زرتك وإن شئت سهلت لك أن تأتيني إلى منزلي، فقال للرسول: ولا واحدة من هاتين الخلتين، "قل إني أخاف إنْ عصيت ربى عذاب يوم عظيم"[1]، أخاف ناراً لا يخبو سعيرها، ولا يخمد لهيبها، فلما أبلغها الرسول قوله قالت: وأراه مع هذا يخاف الله؟ والله ما أحد أحقّ بهذا مني وإن العباد فيه لمشتركون، ثم انخلعت من الدنيا وألقت علائقها[2] خلف ظهرها وجعلت تتعبد، وهي مع ذلك تذوب وتنحل حباً للفتى إليه حتى ماتت من ذلك، فكان الفتى يأتي قبرها فيبكى عنده ويدعو لها فغلبته عينه ذات يوم على قبرها فرآها في منامة في أحسن منظر فقال: كيف أنت وما لقيت بعدي؟ قالت:

نِعم المحبة يا سؤلي محبتكم — حب يقود إلى خير وإحسان

فقال: على ذلك إلامَ صرت؟ فقالت:

إلى نعيم وعيش لا زوال له — في جنة الخلد ملك ليس بالفاني[3]

---

[1]- سورة الأنعام، الآية (١٥).

[2]- علائقها: جمع علاقة، وهى ما تعلق بها من مال وزوج وولد .

[3]- روضة المحبين ص ٣٢٤.

العفة في المحبة

*وروى عن عثمان الضحاك قال: خرجت أريد الحج، فنزلت بخيمة بالأبواب، فإذا بجارية جالسة على باب الخيمة، فأعجبني حُسْنها فتمثلت بقول نصيب:

بزينب ألمم قبل أن يرحل الركب وقل لا تملينا فما ملك القلب

فقالت: أتعرف زينبه؟

قلت: لا.

قالت: أنا زينبه. قلت: حياك الله وحياك قالت: أما والله إن اليوم موعده وعدني العام الأول بالاجتماع في هذا اليوم، فلعلك أن لا تبرح حتى تراه.

قال: فبينما هي تكلمني إذا أنا براكب، قالت: ترى ذلك الراكب؟

قلت: نعم.

قالت: إني لأحسبه إياه، فأقبل فإذا هو نصيب، فنزل قريباً من الخيمة ثم أقبل فسلَّم ثم جلس قريباً منها، فسألته أن ينشدها فأنشدها فقلت في نفسي: محبان قد طال التنائي بينهما فلا بد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة، فقمت إلى بعيري لأشد عليه، فقال: على رسلك[١]، إني معك، فجلست حتى نهض معي، فسرنا وتسامرنا.

فقال لي: أقلت في نفسك محبان التقيا بعد طول تناء فلا بد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة، قلت: نعم قد كان ذلك. قال: ورب هذا البيت منذ أحببتها ما جلست منها مجلساً هو أقرب من مجلسي هذا، فتعجب لذلك وقلت: والله هذه هي العفة في المحبة[٢].

ميعادٌ في جنة الخلد

*أحبّ رجلٌ من أهل الكوفة يُسمى أبا الشعثاء امرأة جميلة، فلما علمتْ به

---

[١]- على رسلك: على مهلك.

[٢]- المستطرف ج٢ ص٢٥٥.

كتبت إليه، وقالت:

لأبي الشعثاء حبٌّ دائم ليس فيه تهمه لمتهم

يا فؤادي فازدجز[1] عنه ويا عبثَ الحبّ به فاقعد وقم

جاءني منه كلام صائد ورسالات المحبين الكلم

صائد يامنه غزلانُه مثل ما يأمن غزلان الحرم

صل إن أحببت أن تعطى المنى يا أبا الشعثاء لله وصم

ثم ميعادك بعد الموت في جنة الخلد إن الله رحم

حيث ألقاك غلاماً ناشئاً ناعماً قد كمُلت فيه النُعم[2]

ما دعاني الهوى لفاحشة

*واختفي إبراهيم بن المهدي في هربه من المأمون عند عمته زينب بنت أبي جعفر، فوكلت بخدمته جارية لها اسمها ملك، وكانت واحدة زمانها في الحُسْن والأدب، طُلبت منها بخمسمائة آلف درهم، فهويها إبراهيم وكره أن يراودها عن نفسها فغنى يوماً وهي قائمة على رأسه:

يا غزالاً لي إليه شافع من مقلتيه

أنا ضيف وجزا الضيف إحسان إليه

ففهمت الجارية ما أراد، فحكت ذلك لمولاتها، فقالت: اذهبي إليه واعلميه أني قد وهبتك له، فعادت إليه فلما رآها أعاد البيتين فأكبت عليه، فقال لها: كفي فلست بخائن فقالت: قد وهبتني لك مولاني وأنا الرسول، فقال أما الآن فنعم. وأنشد المبرد:

ما إنْ دعاني الهوى لفاحشة إلا نهاني الحياء والكرم

فلا إلى فاحش مددت يدي ولا مشت بي لزلة قدم[3]

---

[1]- ازدجر: منعه ونهاه .

[2]- روضة المحبين ص٣٤١.

[3]- المستطرف ج٢ ص٢٥٤.

لا خير في لذة من بعدها سقر

*وقال بعضهم: رأيت امرأة مستقبلة في غاية الضعف والنحافة رافعة يديها تدعو فقلت لها: هل من حاجة؟ فقالت حاجتي أن تنادي في الموقف بقولي:

تزود كل الناس زاداً يقيهم   وما لي زاد والسلام على نفسي

فناديت كما أمرتني وإذا بفتى نحيل الجسم قد أقبل إليَّ فقال: أنا الزاد فمضيت به إليها، فما زاد على النظر والبكاء ثم قالت له: انصرف بسلام، فقلت: ما علمت أن لقاءكما يقتصر على هذا، فقالت: أمسك يا هذا أما علمت أن ركوب العار ودخول النار شديد.

كبسة

*حدَّث شيخ يعرف بأبي عبيدة كان ينادم إسحاق بن إبراهيم المصعبي صاحب الشرطة ببغداد أيام المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل قال:

"استدعاني إسحاق المصعبي ذات ليلة في نصف الليل، فخرجت العقل حتى أتيت داره، فأدخلت من دار إلى أخرى، إلى أن دخلت دار الحرم، فاشتد جزعي، وسمعت في الدهليز بكاء امرأة متخافتاً. وكان إسحاق جالساً على كرسي، وبين يديه سيف مسلول.

فقال: اجلس يا أبا عبيدة.

فسكن روعي.. وجلست، فرمى إلى برقاع أصحاب الشرط في الأرباع يخبر كل واحد منهم بخبر يومه. وفي أكثرها كبسات وقعت بنساء من بنات الوزراء والرؤساء من الكتاب، وبنات القواد والأمراء، مع رجال على ريب، وأنهن محبوسات حتى ينظر في أمرهن.

فقلت: قد وقفت على هذه الرقاع، فما يأمرني الأمير؟

فقال: إن هؤلاء كلهن أجلُّ أباء مني، وأكثر حسباً ومالاً، وقد أفضى بهن الدهر إلى ما قد رأيت. وقد وقع لي أن بناتي سيبلغن إلى هذا المصير، وقد

جمعتهن، وهن خمس بالقرب من هذا الموضع لأقتلهن كلهن الساعة وأستريح فمــا ترى في هذا؟

فقلت: أيها الأمير، إن أباء هؤلاء المحبوسات أخطئوا فــي تــدبيرهن لأنهــم خلفوا عليهن النعم، ولم يحفظوهن بالأزواج، فخلون بأنفسهن ففسدن ولــو كــانوا علقوهن على الأكفاء ما جرى هذا منهن.

والذي أراه أن تستدعى فلاناً القائد، فله خمسة بنين، كلهم جميل الوجه، حسن النشأة، فتزوج كل واحد منهن بواحد فتكفي العار والنار.

فقال: أحسنت والله يا أبا عبيدة، أنفذوا الساعة إليه.

فراسلت الرجل، فما طلع الفجر حتى حضر وأولاده، وعقدت النكــاح لهــم على بنات إسحاق في خطبة واحدة.

الباب الثانـي

نساء ... عاشقات

هؤلاء الموحدون في الحُبّ لن يكونوا أصدق منى، ولن ترى الدنيا، ولـــو تحوّلت إلى فردوس، عاشقا أصدق منى، ولن أرى أكرم منك يا تلك الروح الغالية، ولا أعذب ولا ألطف، وإن توهمت أن الصدود من جنود "الجمال"!

هؤلاء الموحدون في الحُبّ يتكلمون باسمي، على بُعد الزمان والمكان، فأنا وأنت أوّل صوت يناغى ضمير الوجود.

أقرئي هذا الكتاب، يا تلك الروح، وتناسَيْ أننا تلاقينا لحظة مـــن زمـــان، لتذوقي طعم النوم لحظة من زمان!

زكى مبارك

(كتاب العشاق الثلاثة)

* قال الجاحظ: العشقُ اسم لما فضل عن المحبة كما أن الشرفَ اسمٌ لما جاوز الجُود. وقال أعرابي: العشقُ خفيّ أن يُرى وجليّ أن يُخفي، فهو كامن ككمون النار في الحجر، إنْ قدحته أورى وإن تركته توارى[1].

*وقالت فرقة أخرى: العشق هو الاستيهام[2] والتضرّع واللّوزانُ بالمعشوق، والوَجدْ هو الحب الساكن، والهوى أن يهوى الشيء فيتبعه غيًّا كان أو رشدا، والحبّ حرف ينتظم هذه الثلاثة[3].

*وسأل أمير المؤمنين المأمون يحيى بن أكثم عن العشق ما هو؟

فقال: هو سوانح تسنح للمرء فيهيم بها قلبه وتؤثرها نفسه[4].

*وقال بعضهم: لم أرَ حقًّا أشبه بباطل، ولا باطلا أشبه بحق من العشق، هزله جد، وجده هزل، وأوّل لعب، وآخره عطب[5].

*وقال ثمامة: العشق جليس ممتع، وأليف مؤنس، وصاحب ملك مسالكه ضيقة، ومذاهبه غامضة، وأحكامه جائرة، ملك الأبدان وأرواحها، والقلوب وخواطرها، والعيون ونواظرها، والعقول وآراءها، وأعطى عنان طاعتها، وقوة تصريفها، توارى عن الأبصار مدخله، و خفي في القلوب مسلكه[6].

---

[1]- توارى: اشتعل.

٢ – المستطرف ج٢ ص٢٥٠.

٣- الاستيهام: الهيام وهو جنون العشق .

٤- روضة المحبين ص ١٣٨ .

[4]- المستطرف ج٢ ص٢٥٠.

١- روضة المحبين ص ١٣٨.

٢- المستطرف ج٢ ص ٢٥٠.

*وسُئلت أعرابية عن الهوى، فقالت: هو الهوان[١]، غُلط باسمه، وإنما يعرف ما نقول من أبكته المعارف و الطلول[٢].

*وقال أعرابي: العشق أعظم مسلكا في القلب من الروح في الجسم، وأملك بالنفس من ذاتها، بطن وظهر فامتنع وصفُه عن اللسان، وخفي نعتُه عن البيان، فهو بين السحر والجنون، لطيف المسلك والكمون[٣].

*وسئلت أعرابية عن صفة الهوى، فقالت:

الحب أوله ميل تهيم به ... نفسُ المحب فيلقى الموت كاللّعب
يكون مبدؤه من نظرة عرضت ... أو مزحة أشعلت في القلب كاللّهب
كالنار مبدؤها من قدحة، فإذا ... تضرّمت أحرقت مستجمع الحطب[٤]

*ولِيمَ بعض الحكماء على الهوى، فقال: لو كان لذي هوى اختيار لاختـــار أن لا هوى. وأنشد لمجنون ليلى:

أصلي فلا أدري إذا ما ذكرتها ... اثنتين صليت الضُحى أم ثَمَانيا
أراني إذا صلّيتُ أقبلتُ نحوها ... بوجهي وإن كان المصلى ورائيا
وما بي إشراكٌ ولكن حُبها ... وعُظْم الجوى أعيا الطبيب المداويا

*وقال العتبي: قال أعرابي: إن لم يكن العشق ضربا من السحر إنه لـــسعة من الجنون[٥].

٣- الهوان: الذل.

٤- أخبار النساء ص٥٤.

[٣]- روضة المحبين ص١٣٩.

[٤]- تضرمت: اتقدت.

[٥]- أخبار النساء ص٥٤,٠

*وقيل لآخر: ما تقول في العشق؟ فقال: إن لم يكن طرفا من الجنون، فهو نوع من السحر[1]. وقال بعضهم: العشق نوع من الجنون، والجنون فنون، فالعـــشق فن من فنونه[2].

*وقيل: أوّل العشق عناء وأوسطه سُقْم، وآخره قتل. كما قال ابن الفارض رحمه الله:

هو الحب فاسلمْ بالحشا ما الهوى سَهْلُ فما اختاره مُضْني به وله عَقْلُ
وعشْ خاليا فالحبّ أوّله عنى وأوْسطُه سَقْمٌ وآخره قتلٌ[3]

* وقال أعرابي في وصفه: بالقلب وثبتُه، وبالفؤاد وجبتـــه[4]، وبالأحـــشاء ناره، وسائر الأعضاء خدامه، فالقلب من العاشق ذاهل، والدمع منه هامل[5]. والجسم منه ناحل. مرور الليالي تجددّه، وإساءة المحبوب لا تفسده.

*وقيل: ليس هو موقوفا على الحُسْن والجمال، وإنما هو تـــشاكُلُ النفـــوس وتمازجها في الطباع المخلوقة فيها كما قيل:

وما الحب من حُسْن ولا من ملاحة ولكنه شيء به الروح تكْلَفُ

*وقال جرير في العشق:

فلستُ براء عيب ذي الود كله ولا بعض ما فيه إذا كنت راضيا
فعينُ الرّضى عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا[6]

[1]- روضة المحبين ص ١٤٠.
[2]- المرجع السابق ص ١٣٩.
[3]- المرجع السابق ص ١٤١ .
[4] -وجبته: خفقته واضطرابه.
[5] – هملت العين: فاضت وسالت.
[6] – المرجع السابق ص١٣٨ .

*وقيل: العشق يشجع جنان الجبان، ويصفي ذهن الغبي، ويسخي كف البخيل، ويسكن نوافر الأخلاق، وهو أنيس منْ لا أنيس له، وجليس منْ لا جليس له[1].

*وقال بعض الحكماء: العشق يروض النفس، ويهذب الأخلاق، إظهاره طبيعي، وإضماره تكليفي[2].

*وقال آخر: منْ لم تهج نفسه بالصوت الشجيّ والوجه البهيّ فهو فاسد المزاج يحتاج إلى علاج، وأنشدوا في ذلك:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى　　فما لك في طيب الحياة نصيب[3]

*وقيل ليحيي بن معاذ الرازي: إن ابنك قد عشق فلانة، فقال: الحمد لله الذي صيّره إلى طبع الآدمي.

*وذكر أعرابي امرأة كان يواصلها في شبابه، فقال: ما كانت أيامي معها إلا كأباهيم[4] القطا[5] قصَرا، ثم طالت بعدها شوقا إليها، وأسفا عليها، فاليوم بعدها دهر، والساعة شهر[6].

*وقيل لأعرابي: ما بلغ من حُبك لفلانة قال: إني لأذكرها وبيني و بينها عقبة الطائف فأجد من ذكرها رائحة المسك[7].

---

[1]- الداء والدواء لابن القيم ص٢٦٥.

[2] – المرجع السابق ص ٢٦٥ .

[3] – المرجع السابق ص٢٦٥.

[4]- أباهيم: جمع إبهام ، وهى من الأصابع أعظمها في اليدين والرجلين

[5]- القطا: جمع قطاة ، وهو طائر يشبه الحمام ٠

[6]- أخبار النساء لابن الجوزي ص ٦٨ ٠

[7]- المستطرف ج ٢ ص٢٥٠ ٠

*وأنشد شيبان العذري يقول:

لو حزّ بالسيف رأس في محبتها   لطار يهوى سريعا نحوها رأس[1]

*ومن القبائل العربية التي اشتهرت بالعشق قبيلة بني عذرة. وبنو عذرة بطنٌ من قضاعة التي يصل نسبها إلى حمير اليمنية أو مَعَد. وإلى هذه القبيلة يُنسب لونٌ من الحبّ عُرف باسم (الحبّ العُذْري أو الحبّ العفيف)؛ وهو حبٌّ روحي – لا حب حسي– يتعلق فيه العاشق بمحبوبة واحدة، يرى فيها مثله الأعلى الذي يحقق له متعة الروح ورضا النفس واستقرار العاطفة... حبٌّ خالصٌ طاهر من شوائب الدنس والرجس.

وعُرفت هذه القبيلة في أيام بني أُمية – بعد أن استقرت لهم الخلافة – بهذا اللون من الحبّ، ونُسب إليها، واشتهرت به وبكثرة عشاقها المخلصين لمحبوباتهم، الذين يستبد بهم الحبّ، ويشتد بهم الوجد، ويسيطر عليهم الحرمان، حتى يصل بهم إلى درجة من الضنى والهزال والضعف تقضي بهم في أكثر الأحيان إلى الموت و الهلال، مع ثبات وعزم وإخلاص ووفاء لمحبوباتهم، وتصوُّن وتنزيه للمرأة عن المباذل والدنايا والمآثم.

ونجد في قصص الحب العذرية قصصا صوفية يتجاوز فيها العاشق حبّ البشر إلى حبّ الذات العليا حبا يملك عليه كل جوارحه ويصيبه بالجنون ويجعله ينشد الأشعار الغرامية في محبوبه الذي لا يشرك في حبه غيره. وقال بعض العارفين: "كما أن النساء، حبائل الشيطان فهن حبائل العرفان، إذ قد يتوصل العاشق من عشقهن إلى معرفة مبدعهن، لأن المقدمات الصريحة تنتج الأغراض

[1]- المرجع السابق ج٢ ص٢٥٢.

الصحيحة. وبالحري مَنْ أمعن النظر في مخلوق زائل ترقى عند معرفة غايته إلى دائم فاعل[1]".

*وقيل لأعرابي: ممنْ أنت؟ فقال: من قوم إذا أحبوا ماتوا. فقالت جارية سمعته: عذري ورب الكعبة[2].

*وقيل لأعرابي من العذريين: ما بال قلوبكم كأنها قلوب طير تنماث[3]كما ينماث الملح في الماء! أما تجلدون؟ فقال: إننا ننظر إلى محاجر أعين لا تنظرون إليها[4].

*وقد رُوى عن محمد بن جعفر بن الزبير، قال: كنا عند عروة بن الزبير[5] وعنده رجل من بني عذرة، فقال له: يا عذري بلغني أن فيكم رقة وغزلا فأخبرني ببعض ذلك؟ فقال: لقد خلَّفت في الحي ثلاثين مريضا ما بهم داء إلا الحب قد خامر قلوبهم وإن فيه من المرارة والنكد و الكمد ما هو مستعذب عند أربابه، مستحسن عند أصحابه، حلو لا تعدله حلاوة، ومرٌّ لا تعدله مرارة. قال الكميت بن زيد في ذلك:

الحب فيه حلاوة ومرارة	سائل بذلك من تطعّم أو ذُقِ
ما ذاق بؤسَ معيشة ونعيمها	فيما مضى أحد إذا لم يعشق

[1]- قصص الحب العربية ص ٦٧.

[2]- عيون الأخبار ج ٤ ص ١٣١ ٠

[3]- تنماث: تذوب ٠

[4]- المرجع السابق ٠

[5]- أخبار النساء ص٣٦ ٠

*وكان رجل صوفي يدعى القاسم الشراك، وكانت له عنيزات يرعــاهن، وذات يوم وبينما هو يرعى عنيزاته إذ سمع صبيا من صبيان الصحراء ينشد فــي حقل:

إن هواك الذي بقلبي صيرني سامعا مطيعا
أخذت قلبي وغمض طرفي سلبتني العقل والهجوعا
فذر فؤادي وخذ رقادي فقال لا.. بل هما جميعا
فراح مني بحاجتيه وبت تحت الهوى صريعا

فاعتراه طرب شديد فقال للصبي وهو يقترب منه: كيف قلت:

ففزع الصبي وجرى. فتبعه وهو يقول: لا بأس عليك كيف قلت يا صــبي؟ فلم يقف الصبي ولم يجبه.

فرجع الراعي حرَّان أسفا وهو يصيح: فؤادي.. وظلَّ يردد الأبيات.

*ومن العشق العفيف عشق السلف الكرام والأئمة الأعلام ومنهم عبيــد الله بن مسعود أحد الفقهاء السبعة، عشق حتى اشتهر أمره، ولم ينكر عليه، وعُدَّ ظالما منْ لامه، ومن شِعره:

كتمت الهوى حتى أضر بك الكتم ولامك أقوام ولومهم ظلم
فنم عليك الكاشحون وقبلهم عليك الهوى قد نم لو ينفع الكتم[1]
فأصبحت كالهندي إذ مات حسرة على اثر هند أو كمن شفه[2]
تجنبت إتيان الحبيب تأثما ألا إن هجران الحبيب هو الإثم
فذق هجرها قدها قد كنت تزعم أنه رشاد ألا يا ربما كذب الزعم[3]

[1]- نمَّ الحديث: أفشاه .
[2]- شفه: أي هزله حتى صار فحيلا .
[3]- الداء والدواء لابن القيم ص (٢٦٧) .

عفراء و عروة

*تعتبر قصة عروة[1] وعفراء أقدم قصص الحب العذري تاريخيـــا، فقـــد أحبّ عروة بن حزام ابنة عمه عفراء وهما صبيان، وكان عروة يعيش فـــي بيـــت أبيها بعد وفاة أبيه، وربط الحب بين القلبين الصغيرين منذ طفولتهما المبكرة، وشبَّ مع شبابهما. وتمنى عروة أن يتوج الزواج قصة حبهما الطاهرة، فأرسل إلى عمـــه يخطب إليه عفراء ووقف المال عقبة في طريق العاشقين، فقد غالت أسرة عفـــراء في المهر، وعجز عروة عن القيام به. وألح عروة على عمـــه، وصـــارحه بحـــب عفراء، فراح يماطله و يمنيه الوعود، وألح عروة على عمـــه، وصـــارحه بحـــب عفراء، فراح يماطله و يمنيه الوعود، ثم طلب إليه أن يضرب فـــي الأرض لعـــل الحياة تقبل عليه فيعود بمهر عفراء. وينطلق عروة بحثا عن المال، ثم يعود بعـــد حين وقد تيسر له ما كان يسعى إليه، والأمل يداعب نفسه و ويرسم لـــه مـــستقبلا سعيدا يجمع بينه وبين عفراء. وفي أرض الوطن يخبره عمه أن عفراء قد ماتت، ويريه قبرا جديدا ويقول له انه قبرها. وتتحطم آمال عروة، وينهار كل ما كان يبنيه لأيامه المقبلة، وترتبط حياته بهذا القبر، يبثه آلامه، ويندب حظـــه، ويبكـــي حبـــة الضائع ومأساته الحزينة، ويذيب نفسه فوق الحجارة الصُّم حسرات ودموعـــا. ثـــم تكون مفاجأة لم يكن يتوقعها، لقد ترامت إليه أنباء بأن عفراء لـــم تمـــت، ولكنهـــا تزوجت. فقد قدم أموي غنى من الشام في أثناء غيبته، فنزل بحي عفراء، ورآهـــا فأعجبته، يخطبها إلى أبيها، ثم تم الزواج رغم معارضتها، ورحل بها إلـــى الـــشام حيث يقيم وتثور ثائرة عروة، ويصب جام غضبه على عمه الذي خدعه مـــرتين:

[1]– هو عروة بن حزام بن مهاجر الضنى، من بنى عذرة ، وهو شاعر رقيق الشعر، كان يعشق ابنة عمه عفراء. وقد أدرك الجاهلية، وتُوفى سنة ٣٠ هـــ فلم يدرك العصر الأموي.

خدعه حين مناه عفراء، ودفع به إلى آفاق الأرض البعيدة خلف مهرها، ثم خدعه حين لفق له قصة موتها، وتركه فريسة أحزانه ودموعه، فمضى يهجوه:

فيا عمُ يا ذا الغدر لازلت مبتلى	حليفا لهم لازم وهوان
غدرتَ وكان الغدر منك سجية	فألزمت قلبي دائم الخفقان
وأورثتني غما وكربا وحسرة	وأورثت عيني دائم الهَمَلان
فلا زلت ذا شوق إلى من هويته	وقلبك مقسوم بكل مكان

وينطلق عروة إلى الشام، وينزل ضيفا على زوج عفراء و الزوج لا يعرفه بطبيعة الحال، ثم ما يزال يحتال حتى يبعث إليها بخاتمه في إناء لبن مع جارية لها، وتعرف عفراء أن ضيف زوجها هو حبيبها القديم. ويلتقي العاشقان بعد تلك الأيام الطويلة الحزينة التي باعدت بينهما، ويتذكران ماضيهما السعيد فوق أرض الوطن البعيدة وما فعلت بهما الأيام، وتكون شكوى، وتكون دموع. ويصمم عروة على العودة إلى وطنه حرصا على سمعة عفراء وكرامتها، واحترامها لزوجها الذي أحسن وفادته وأكرم مثواه. ويرحل عروة بعد أن تزوده عفراء بخمار لها ذكرى حبيبة منها. وفي أرض عذرة التي شهدت رمالها السطور الأولى من قصة حبه، تكون الدواء و الأسقام في استقباله. وتسوء حال عروة، ويشتد عليه الضنى، ويستبد به الهزال، ويلح عليه الإغماء و الخفقان، ويأخذه مرض السّل حتى لا يبقى منه شيئا، ويعجز الطب عن علاجه. ولا يجد عروة إلا شعرة يفزع إليه ليبثه آلامه وأحزانه، ويصور فيه ما يلح على نفسه من أشواق وحنين، وما يضطرب في جوانحه من آسى ووجد. يقول مرة:

فوالله لا أنساك ما هَبّت الصبا	وما عقبتها في الرياح جنوب
وإني لتعروني لذكراك هزة	لها بين جلدي و العظام دبيب
وما هو إلا أن أراها فجاءة	فابهت حتى ما أكاد أجيب

واصرف عن رأيي الذي كنت أرتني وأنسى الذي أحدثتُ حين تغيب
حلفت بربّ الراكعين لربهم خشوعا، وفوق الراكعين قريب
لئن كان برد الماء حران صاديا إليّ حبيبا أنها لحبيب[1]

وذكر ابن أبي عتيق، قال: بينما أنا أسير في أرض بني عذرة، إذ أنا ببيت جديد، فدنوت منه، فإذا بعجوز تعلّل[2] شابا قد نهكته العلة، وبانت عليه الذلة. فسألتها عن خبره، فقالت: هذا عروة بن حزام[3]. فدنوت منه، فسمعته يقول.

كان من أخواتي باكيا لغد فاليوم، أني أراني اليوم مقبوضا

فقلت: أنت عروة بن حزام؟ قال: نعم، الذي أقول:

جعلت لعرّاف اليمامة حكمَه وعراف نجد إنْ هما شفياني[4]
فقالا: نعم، تشفي من الداء كله وقاما مع العواد يبتدراني[5]
فما تركا من سلوة يعلمانها، ولا شربة إلا وقد سقياني[6]
فقالا: شفاك الله، والله مالنا، بما حملت منك الضلوع، يدان
فويلي على عفراء ويْلا كأنه على النحر والأحشاء حدُّ سنان[7]
فعفراءُ أصفي الناس عندي مودة وعفراء عندي المُعرضُ المتواني[8]

---

[1]- الحب المثالي عند العرب ص ٢٤ – ٢٧ مع بعض التصرف.
[2]- تعلل: تداوى.
[3]- العراف: الطبيب عند العرب آنذاك.
[4]- الداء: المرض، والعواد: الزوار، ويبتدران: يعالجان.
[5]- العواد: الزوار.
[6]- السلوة: يريد بها الحديث الذي يخفف عن المريض وينسبه ما به من داء أوهم .
[7]- بعد السنان: الجانب القاطع من السيف وغيره .
[8]- المعرض: الذي يصد عن حبيبه و يهجره ، والمتوانى : المتلكيء.

ثم شهق شهقة توهمت أنها غشية فتنحيت عنه، ودنت العجوز منه فوجدته قد قضى نحبه فما برحنا حتى دفناه[1]. ولما بلغ النبأ عفراء، اشتد جزعهـا عليـه، وظلت تندبه وتبكيه حتى طواها الموت بعده بقليل. وقيل أن عفراء دُفنـت إلـى جانب قبر عروة، ومن القبرين نبتت شجرتان غريبتان لم يرَ الناس مثلهمـا مـن قبل، ظلتا تنموان حتى التفت إحداهما على الأخرى.

وروى أبو الحسن المدايني عن الأصمعي قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: لو أدركت عفراء وعروة، لجمعت بينهما.

عزة وكُثَيِّر

*ذكر ابن عبد ربه في "العقد الفريد" أن أول علاقة كُثير بعزة[2] أنه خرج من منزله يسوق غنما إلى الجار[3] فلما كان بالخبث[4] وقف على نسوة من بنى ضمرة فسألهن عن الماء؛ فقلن لعزة وهي جارية حين كَعُب[5] ثدياها: أرشديه إلـى المـاء، فأرشدته وأعجبته. فبينما هو يسقى غنمه إذ جاءته عزة بدراهم، فقالت: يقلـن لـك النسوة: بعنا بهذه الدراهم كبشا من ضأنك فأمر الغلام فدفع إليها كبشا وقال:

ردّي الدراهم وقولي لهن   إذا رُحت بكنّ اقتضيت حقي

---

[1]- أخبار النساء ص ٦٥ .

[2]- كانت عزة مولاة للأنصار ، ومسكنها المدينة ، وهى أقدم من غنى الغناء الموقع من النساء بالحجاز ، وماتت قبل جميلة ، وكانت من أجمل النساء وجها ، وأحسنهن جسما وقيل : سُميت (بالميلاء) لأنها كانت مغرمة بالشراب ، وكانت تقول : خذ ملئا وأردد فارغا . والصحيح أنها سُميت الميلا ء لميلها في مشيتها .

[3]- الجار: موضع بينه وبين المدينة يوم وليلة .

[4]- الخبث: ماء بين مكة والمدينة .

[5]- كعب: نهد وبرز .

فلما راح بهن، فقلن له: هذا حقك فخذه، قال: عزة غريمي، ولست اقتضى حقي إلا منها، فمزحن معه وقلن: ويحك عزة جارية صغيرة وليس فيها وفاء لحقك فأحله على إحدانا فإنها أملا به منها و أسرعُ له أداء. فقال: ما أنا بمحيل حقي عنها.

ومضى لوجهه، ثم رجع إليهن حين فرغ من بيع جلبه فأنشدهن فيها:

نظرت إليها نظرة وهي عاتق   على حين أن شبتْ وبان نهودها[1]

وقد درّعوها وهي ذات مؤصد   مجوب ولما يلبس الدرع ريدُها [2]

قضى كلّ ذي ديْن فوفي غريمه   وعزة ممطول مُعَنَّى غريمها[3]

فقلن له: أبيت إلا عزة، وأبرزنها إليه وهي كارهة. ثم أحبته عزة بعد ذلك أشد من حبه إياها.

*وجاء في كتاب "الشعِر والشعراء" لابن قتيبة أن كُثيرا خرج إلى مصر وعزة بالمدينة فاشتاق إليها، فقام إلى بغلة له فأسرجها وتوجَّه نحو المدينة ولم يعلم به أحد . فبينا هو يسير في التيه بمكان يُقال له: "فيفا خريم"، إذا هو بعير قد أقبلت من ناحية المدينة، في أوائلها محامل فها نسوة وكثير متائم بعمامة له وفي النسوة عزة فلما نظرت إليه وأنكرها، فقالت لقائد قطارها: إذا دنا منك الراكب فاحبس. فلما دنا كُثير حبس القائد القطار، فابتدرته عزة فقالت من الرجل؟ قال: من الناس. قالت. أقسمت. قال كُثير. قالت: فأين تريد في هذه المفازة؟ قال: ذكرت عزة وأنا بمصر، فلم أصبر أن خرجت نحوها على الحال التي ترين. قالت: فلو أن عزة لقيتك فأمرتك بالبكاء، أكنت تبكى؟ قال: نعم فنزعت عزة اللثام عن وجهها وقالت:

---

[1]- العاتق: الجارية أول ما أدركت.

[2]- درعوها: حجبوها.

[3]- معنّى: معذب ، والغريم: العاشق.

أنا عزة، فإن كنت صادقا فافعل ما قلت، فأفحم، فقالت للقائد: قُد قطـارك. فقـاده. وبقي كُثير مكانه لا يحير ولا ينطق حتى توارت، فلما فقـدها سـالت دموعـه، وأنشأ يقول:

وقضين ما قضين ثم تركتيني	بفيفا خريم، قائما أتلدد
تأطرن حتى قلت لسن بوارحا	وذبن كما ذاب السديف المسرْهد
أقول لماء العين: أمعن لعله	لا يرى من غائب الوجد يشهد
فلم أر مثل العين ضنت بمائها	عليّ، ولا مثلي على الدمع يحسد
وبين التراقى واللهاة حرارة	مكان الشجي، ما إن تبوح فتبرد

*وحُكى أنَّ زوج عزة أراد أن يحج بها، فسمع كُثيـر الخبـر فقـال: والله لأحجن لعلى أفوز من عزة بنظرة.

قال: فبينما الناس في الطواف إذ نظر كُثير لغزة وقد مضت إلـى جملـه فحيته ومسحت بين عينيه وقالت: حييت يا جمل فبادر ليلحقها ففاتته فوقـف علـى الجمل وقال:

حيتك عزة بعد الحج وانصرفت	فحي ويحك من حياك يا جمل
لو كنت حييتها ما كنت ذا سرف	عندي ولا مسك الإدلاج والعمل

قال: فسمعه الفرزدق فتبسم وقال له: من تكون يرحمك الله؟

قال: أنا كُثير عزة، فمن أنت يرحمك الله؟

قال: أنا الفرزدق بن غالب التميمي.

قال: أنت القائل:

رحلت جمالهم بكل أسيلة	تركت فؤادي هائما مخبولا
لو كنت أملكهم إذا لم يرحلوا	حتى أودع قلبي المتبولا
ساروا بقلبي في الحدوج وغادروا	جسمي يعالج زفرة وعويلا

فقال الفرزدق: نعم.

فقال كُثير: والله لولا أني بالبيت الحرام لأصيحن صيحة أفزع هشام بن عبد الملك وهو على سرير ملكه.

فقال الفرزدق: والله لأعرفنّ بذلك هشاما، ثم توادعا وافترقا.

فلما وصل الفرزدق إلى دمشق دخل إلى هشام بن عبد الملك فعرفه بما اتفق له مع كُثير.

فقال له: اكتب إليه بالحضور عندنا لنطلق عزة من زوجها ونزوجه إياها، فكتب إليه بذلك فخرج كُثير يريد دمشق فلما خرج من حيه وسار قليلا رأى غرابا على بانة وهو يفلي نفسه وريشه يتساقط فاصفرّ لونه وارتاع من ذلك وجد في السير، ثم أنه مال ليسقي راحلته من حي بنى فهد وهم زجرة الطير، فبصر به شيخ من الحي فقال: يا ابن أخي أرأيت في طريقك شيئا فراعك؟

قال: نعم يا عم رأيت غرابا على بانة يتفلى وينتف ريشه.

فقال له الشيخ : أما الغراب فإنه اغتراب، والبانة بيْن، والتفلي فُرقة، فازداد كُثير حزنا على حزنه لما سمع من الشيخ هذا الكلام وجد في السير إلى أن وصل دمشق ودخل من أحد أبوابها فرأى الناس يصلون على جنازة، فنزل وصلى معهم، فلما قضيت الصلاة صاح صائح لا اله إلا الله ما أغفلك يا كُثير عن هذا اليوم.

فقال: ما هذا اليوم يا سيدي؟ فقال: إنّ هذه عزة قد ماتت، وهذه جنازتها، فخرَّ مغشيا عليه فلما أفاق أنشأ يقول:

فما أعرف الفهدي لا درّ دره	وأزجره للطير لا عز ناصره
رأيت غرابا قد علا فوق بانة	ينتف أعلى ريشه ويطايره
فقال غراب اغتراب من النوى	وبانة بيْن من حبيب تعاشره

ثم شهق شهقة فارقت روحة الدنيا ومات من ساعته ودفن مع عـــزة فـــي يـــوم واحد[1].

*ويذكر ابن عبد ربه في" العقد الفريد " أن كُثيرا تذكر عزة فقال:

رُهبان مدْيَنَ و الذين عهدْهُمُ يبكون من حذر العذاب قعودا

لو يسمعون كما سمعت حديثها خروا لعزة راكعين سجودا

وقيل لكُثير عزة: لِمَ تركت الشعر؟

قال: ذهب الشباب فما أعجب، وماتت عزة فما أطرب، ومات ابن أبى ليلى فما أرغب، يريد عبد العزيز بن مروان.

وقال كُثير في عزة:

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثّل لي ليلى بكلّ سبيل

وقال:

فإن تسلُ عنك النفس أو تدع الهوى فباليأس تسلو عنك لا بالتجلُّد

قيس بن معاذ المجنون والظبية

*دخل كُثير عزة على عبد الملك بن مروان، فجعل ينشد شعرا فـــي عـــزة وعيناه تذرفان. فقال له عبد الملك: قاتلك الله يا كُثير، هل رأيت أحدا أعشق منـــك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين.. خرجت مرة أسير في البادية على بعير لي، فبينا أنـــا أسير إذ رأيت على بعد شخصا، فذهبت نحوه، فإذا رجل قد نصب شـــركا للظبـــاء وقعد بعيدا منه. فسلمت عليه، فردّ السلام.

فقلت: ما أجلسك هاهنا؟

قال: نصبت شركا للظباء فأنا أرصدها.

قلت: إنْ قمت له لديك فصدت أتطعمني؟

---

[1]- المستطرف ج ٢ ص ٢٦٣ – ٢٦٤ .

قال: إي والله.

قال كُثير: فنزلت، فعقلت ناقتي، وجلست أحدثه، فإذا هو أحسن خلق الله حديثا وأرقه وأغزله.

فما لبثنا أن وقعت ظبية في الشرك فوثب ووثبت معه فخلعها من الحبال، ثم نظر في وجهها مليا وأنشا يقول:

أيا شبْه ليلى لن تراعى فإنني لك اليوم من بين الوحوش صديق

ويا شبه ليلى لن تزالي بروضة عليك سحاب دائم وبروق

فديتك من أسر دهاك لحبها فأنت لليلى ما حييت طليق

ثم أصلح شركه وعدنا إلى موضعنا فقلت و الله لا أبرح حتى أعرف أمر هذا الرجل فأقمنا باقي يومنا فلم يقع شيء. فلما أصبحنا غدا ونصب شركه، فلم يلبث أن وقعت ظبية شبيهة بأختها بالأمس فوثب إليها ووثبت، فاستخرجها من الشرك ونظر في وجهها مليا ثم أطلقها فمرت، وأنشأ يقول:

اذهبي في كلاءة الرحمن أنت مني في ذمة و أمان

لا تخافي أن تفاجي بسوء ما تغنَّى الحمام في الأغصان

ثم عدنا إلى موضعنا فلم يقع في يومنا ذلك شيء. فلما أمسينا صرنا إلى الغار فبتنا فيه، فلما أصبحنا عدل إلى شركه وغدوت معه. فنصبه وقعدنا نتحدث وقد شغلني يا أمير المؤمنين حُسن حديثه عما أنا فيه من الجوع فبينما نحن نتحدث إذ وقعت في الشرك ظبية فوثب إليها ووثبت معه، فاستخرجها من الشرك، ثم نظر في وجهها وأراد أن يطلقها، فقبضت على يده وقلت:

ماذا تريد أن تعمل؟.. أقمت ثلاثا كلما صدت شيئا أطلقته، فنظر في وجهي وعيناه تزرفان، وأنشأ يقول:

أتلحي محبا هائم القلب أن رأى شبيها لمن يهواه في الحبل موثقا

فلما دنا منه تذكر شجوه   وذكرَّه منْ قْد نأى فتشوقا

فرحمته يا أمير المؤمنين، وبكيت لبكائه، فإذا هو قيس بن معاذ المجنـــون فذاك أعشق مني يا أمير المؤمنين!

بثينة وجميل

*أحبّ جميل بن معمر العذري ابنة عمة بثينة. وكان أول ما عَلِقَ بثينة أنه أقبل يوما بإبله حتى أوردها واديا يُقال له بغيض، فاضطجع وأرسل إبله مُــصْعَدة، وأهل بثينة بذنب الوادي، فأقبلت بثينة وجارة لها واردتيْن الماء، فمرتا على فصال له بُرُوك فَعَرمَتْهن بثينة – يقول: نَفَّرتْهن – وهي إذ ذلك جويرية صغيرة، فــسبَّها جميل، فافترت عليه، فملُح جميل سبابها فقال:

وأول ما قاد المودة بيننا   بوادي بغيض يا بثين سبابُ

وقلنا لها قول فجاءت بمثله   لكل كلام يا بثين جوابُ

قال الزبير: وحدثني أيضا الأسباط بن عيسى بن عبد الجبار العــذري أن جميلَ بن معمر خرج في يوم عيد و النساء إذ ذلك يتزين ويبدو بعضهن لــبعض و يبدون للرجال، وأن جميلا وقف على بثينة وأختها أم الجسير في نساء مــن بنــي الأحبّ، وهن بنات عم عبيد الله بن قطبة أخي أبيه لحّا، فرأى منهن منظرا وأعجبته وعشق بثينة وقعد معهن، ثم راح وقد كان معه فتيان من بني الأحب، فعلم أن القوم قد عرفوا في نظره حبّ بثينة ووجدوا عليه، فراح وهو يقول:

عَجِل الفراق وليته لم يعجل   وجرت بوادر دمعك المتهلل

طربا وشاقك ما لقيت ولم تخف   بين الحبيب بُرقة مِجْول

وعرفت إنك حين رحت ولم يكن   بعد اليقين وليس ذاك بمُشكل

لن تستطيع إلى بثينة رَجعة   بعد التفرق دون عام مقبل

قال: وإن بثينة لما أُخبرت أن جميلا قد نسب بها حلفت بالله لا يأتيها على خلاء إلا خرجت إليه ولا تتواري منه، فكان يأتيها عند غفلات الرجال فيتحدث إليها ومع أخواتها، حتى نمى إلى رجالها أنه يتحدث إليها إذا خلا منهم، وكانوا أصلافا غُيّرا – أو قال غَيَارى – فرصدوه بجماعة نحو من بضعة عشر رجلا وجاء على الصهباء ناقته حتى وقف على بثينة وأم الجسير وهما يحدثانه وهو ينشدها يومئذ:

حلفت برب الراقصات إلى مِنى ... هوى القطا يجتزن بطن دفين

لقد ظن هذا القلب ،ن ليس لاقيا ... سُليمى ولا أم الجسير لحين

فليت رجالا فيك قد نذروا دمي ... وهموا بقتلي يا بثين لقوني

فبينا هو على تلك الحال إذ وثب عليه القوم فرماهم بها فسبقت به وهو يقول:

إذا جمع الاثنان جمعا رميتهم ... بأركانها حتى تخلَّى سبيلها[1]

*وقيل أن بثينة واعدت جميلا أن يلتقيا في بعض المواقع، فأتى لوعدها. وجاء أعرابي يستضيف القوم فأنزلوه وقروه[2]، فقال لهم: قد رأيت في بطن هذا الوادي ثلاثة نفر متوارين في الشجر، وأنا خائف عليكم أن يسلبوا بعض إبلكم، فعرفوا أنه جميل وصاحباه، فحرسوا بثينة ومنعوها من الوفاء بوعده. فلما أسفر له

[1]– هو جميل بن معمر ، شاعر من بن عذرة ، وينسب بأم الجسير ، عشق ابنة عمة بثينة وتشبب بها فرفض أهلها أن يزوجوه إياها وله فيها أشعار كثيرة ، توفى في سنة ٨٢ هـ.

٢– هي بثينة بنت حبا بن ثعلبة العذرية : شاعرة من بني عذرة ، من قضاعة . اشتهرت بأخبارها مع جميل بن معمر العذري ، وهو من قومها . وكانت منازلهم بوادي القرى ، بين المدينة ومكة . مات جميل قبلها فرثته ولم تعش بعدة طويلا ، وكان في شعرها رقة ومتانة ، توفيت سنة ٨٢ هـ .

[2]– قروه: استضافوه.

الصبح انصرف كئيبا سيء الظن بها ورجع إلى أهله، فجعل نساء الحي يقرعنه بذلك ويقلن له: إنما حصلت منها على الباطل وغيرها أولى بوصلك منها، كما أن غيرك حظي بها، فقال في ذلك:

أبثين إنك قد ملكت فاسجحي	وخذي بحظك من كرم واصل
فلرب عارضة علينا وصلها	بالجد تخلطه بقول الهازل
فأجبها بالقول بعد تستر	حبي بثينة عن وصالك شاغلي
لو كان في حبي كقدر قلامة	فضلا، وصلتك أو أتتك رسائلي
ويقلن إنك قد رضيت بباطل	منها فهل لك في اجتناب الباطلا[1]

*وشاعت قصتهما، وشُهر أمرهما، فتوعده قومها، وتقدم جميل إليهم يخطبها، ولكنهم أبوها عليه وردوه دونها، وزوجوها من فتى منهم، نبيه بن الأسود العذري. وكان جميل من فتيان عذرة وفرسانها الأشداء، وكان قومه أعز من قوم بثينة، فوقف في وجههم يتحداهم ويهزأ بهم. يقول مرة:

ولو أن ألفا دون بثينة كلهم	غَيَارى، وكل حارب مزمع قتلي[2]
لحاولتها إما نهارا مجاهرا	وإما سرى ليل ولو قطعت رجلي[3]

ولم يغير هذا الزواج من الحب الجارف الذي كان يملا على العاشقين قلبيهما، وظلت العلاقة بينهما كما كانت من قبل، يزورها سرا في غفلة من زوجها، أو يلتقيان خارج بيت الزوجية، وما بينهما سوى الطهر و العفاف. وشكا زوجها إلى أهلها إلى أهله، وتحدث إليه أهله في أمر هذه العلاقة الغريبة التي لا أمل فيها، وهذا الإلحاح الذليل خلف امرأة متزوجة، وحذروه مغبة الاندفاع في هذا الطريق

---

[1]– قصص الحب العربية ص ٣٢.

[2]– الحارب: الغاضب، و المزمع: العازم .

[3]– السرى: المسير في الليل .

الشائك الوعر، وما ينطوي عليه من عواقب وخيمة، وهددوه بأن يتبروا منه ويتخلوا عنه إذا استمر في ملاحقته لها. ولكن هذا كله لم يغير من الأمر شيئا، ولم يفلح في إطفاء الجذوة المتقدة في قلبي العاشقين. لقد امتنع جميل عن بثينة فترة من الزمن لم تطل، ثم عادت النار تتأجج في فؤاده، فعاود زيارتها، بل تمادى في علاقته بها، وفي تحديه لأهلها واستهانته بزوجها، فلم يجدوا أمامهم سوى السلطان يشكونه إليه، فشكوه إلى عامر بن ربعي و إلى بنى أمية على وادي القرى، فأنذره وأهدر لهم دمه إن رأوه بديارهم. وامتنع جميل عن بثينة مرة أخرى، ومرة أخرى ألح عليه الشوق، ولم يطق عنها صبرا، فعاود زيارتها معرضا نفسه للهلاك. وأعاد أهلها شكواهم إلى السلطان، فطلبه طلبا شديدا. وفرَّ جميل إلى اليمن حيث أخواله من جذام، وظل مقيما بها حتى عزل ابن ربعي، فعاد إلى وطنه ليجد قوم بثينة قد رحلوا إلى الشام، فرحل وراءهم. وكأنما يئس جميل من هذه المطاردة التي لا تنتهي، والتي أصبح الأمل فيها ضعيفا، و الفرصة ضيقة. لقد فرقت البلاد بينه وبين صاحبته، ولم يعد لقاؤهما ميسرا كما كان عندما كانت تضمهما جميعا أرض عذرة، فقرر أن يرحل إلى مصر، ربما ليلحق ببعض قومه الذين سبقوه إليها، واستقروا بها كثير من القبائل العربية التي هاجرت إليها بعد الفتح. وانتهز جميل فرصة أتيحت له في غفلة من أهل بثينة فزارها مودعا الوداع الأخير، ثم شدَّ رحاله إلى مصر حيث قضى فترة من الزمن لم تطل، يتشوق إليها، ويحن لها، ويتذكر أيامه معها، ويبكي حبه القديم:

ألا ليت أيام الصفاء جديد	ودهرا تولى يا بثين يعود
فنْغنى كما كنا نكون، وأنتم	صديق، وإذ ما تبذلين زهيد
وما أنْس مِ الأشياء لا أنْس قولها	وقد قربت نِضوي: أمصر تريد؟
ولا قولها: لولا العيون التي ترى	أتيتك فاعذرني فدتك جدود
علقت الهوى منها وليدا فلم يزل	إلى اليوم ينمى حبها ويزيد

فلو تكشف الأحشاء صودف تحتها ... لبثينة حب طارف وتايد

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بوادي القرى إني إذن لسعيد

وهل ألقين سُعْدي من الدهر مرة ... ومارث من حبل الصفاء جديدا

وقد تلتقي الأهواء من بعد يأس ... وقد تطلب الحاجات وهي بعيد

ولكنَّ القدر أبى أن تلتقي الأهواء بعد يأس، أو أن تدرك الحاجات البعيدة، فلم تطل أيام جميل بمصر، فقد أخذ النور يخبو، ثم انطفأ السراج، وودَّع جميل الحياة بعيدا عن بثينة التي أفنى شبابه في طلبها، بعيدا عن أرض عذرة التي شهدت أيامهما السعيدة وأيامهما الشقية، بعيدا عن وادي القرى الذي كان يتمنى أن يعود إليه ليبيت فيه ليلة تكتمل له فيها سعادته. ويبلغ نعيه بثينة بعد حين، فتسقط مغشيا عليها، حتى إذا ما أفاقت أنشدت هذين البيتين اللذين تعاهد فيهما نفسها على الوفاء لعهده و الإخلاص لذكراه، واللذين أودعت فيهما كل ما تفيض به نفسها من مرارة ويأس بعده:

وإن سُلُوِّى عن جميل لساعة ... من الدهر ما حانت ولا حان حينها

سواء علينا يا جميل بن معمر ... إذا مت بأساءُ الحياة ولينها

وتمر الأيام عليها بعد ذلك حزينة باكية، وتتوالى الليالي طويلة ثقيلة، موحشة، تستعيد فيها ذكريات حبها البعيدة، وتسترجع ما مر بها في ماضيها السعيد الذي طوته رمال عذرة إلى الأبد. ويأخذ النور يخبو، ثم ينطفيء السراج، وتودع بثينة الحياة بعيدة عن جميل الذي وهبته حبها وإخلاصها، بعيدة عن أرض عذرة ووادي بغيض حيث خط طفل الحبّ أول سطر في كتاب حبهما الخالد[٢].

---

[١]- سعدي هي بثينة .

[٢]- الحب المثالي عند العرب ص ٤٠ - ٤٣ مع بعض التصرف .

فوز والعباس بن الأحنف

*لقد تصوّف ابن الأحنف في الحبّ، كما تصوّف ابن الفارض في الحبّ، وابن الفارض قال في هواه:

وعَلَى تفنُّن واصفيه بحُسْنه — يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

فإن قيل إنَّ هوى ابن الفارض هو الخالق، وإنَّ هوى ابن الأحنف هو المخلوق، فنحن نجيب بأن جمال المخلوق شعاع من جمال الخالق[1].

عشق العباس بن الأحنف (فوز)، والظاهر أن (فوز) اسم ابتدعه ابن الأحنف ليخفي هوية محبوبته خوفا عليها من كلام الناس، وهو هوى لم تفضحه غير الدموع، فقد قال:

لا جزى الله دمع عيني خيرا — وجزى الله كل خير لساني
ثم دمعي فليس يكتم شيئا — ورأيت اللسان ذا كتمان
كنت مثل الكتاب أخفاه طيّ — فاستدلوا عليه بالعنوان

ثم قال:

هبوني أغض إذا ما بدت — وأملك طرفي فلا أنظر
فكيف استتاري إذا ما الدموع — نَطَقْن فبحن بما أضمر

ويعزى قلبه بأنه سيموت مكتوم السر ألا عمن يحب، فيقول:

أبكى الذين أذاقوني مودتهم — حتى إذا أيقظوني في الهوى رقدوا
واستهضوني فلما قمت منتصبا — بثقل ما حملوني في الهوى قعدوا
جاروا على ولم يوفرا بعهدهم — قد كنت أحسبهم يوفون إن وعدوا
لأخرجن من الدنيا وحبكم — بين الجوانح لم يشعر به أحد[2]

---

[1]- العشاق الثلاثة ص١٢٢.

[2]- المرجع السابق ص ١٣٠.

إنَّ أعنف هوّى يعانيه عاشق هو الهوى المكتوم في بغداد، ومحبوبته عقيلة من العقائل النبيلات في بغداد، وهي سيدة كاملة تأنس بالروح وتنفر من الإسفاف، وهي المثال الصادق لشرف العفاف، وهي خليقة بأن يشقى بها العباس هذا الشقاء، فلعلها كما وصفها بقوله:

ذكرتك بالتفاح لما شممته وبالراح لما قابلتْ أوجه الشرب

كرت بالتفاح منك سوالفا وبالراح طعما من مقبّلك العذب

أطال العاشق حديثه عن بلائه بالحب، وحاول أن يداوى مرضه برحلة إلى الحجاز في موسم الحج، ولكن المرض عوقه في الطريق.

*وحكى المسعودي[1] أن جماعة من أهل البصرة قالوا: خرجنا نريد الحج، فلما كنا ببعض الطريق إذا غلام وقف على المججَّة وهو ينادى: أيها الناس، هل فيكم أحد من أهل البصرة؟ فعَدلنا إليه وقلنا له: ما تريد؟ فقال: إن مولاي لما به يريد أن يوصيكم. فملنا معه فإذا شخص مُلقى على بعد من الطريق تحت شجرة لا يحير جوابا ، فجلسنا حوله فأحس بنا فرفع طرفه وهو لا يكاد يرفعه ضعفا، وأنشأ يقول:

يا غريب الدار عن وطنه مُفردا يبكى على شَجَنِه

كلما جدَّ البكاء به دبت الأسقام في بدنه

ثم أُغمى عليه طويلا ونحن جلوس حوله إذ أقبل طائر فوقع على الشجرة وجعل يغرد، ففتح عينيه وجعل يسمع تغريد الطائر ثم أنشأ الفتى يقول:

ولقد زاد الفتى شجنا طائر يبكى على فَنَنه

شفّه ما شفني فبكى كلنا يبكى على سكَنِه

ثم تنفس تنفسا فاضت نفسه معه، فلم نبرح من عنده حتى غسلناه وكفناه وتولينا الصلاة عليه. فلما فرغنا من دفنه سألنا الغلام عنة فقال: هذا العباس بن الأحنف[2]!

مي وذو الرُّمة

*قال أبو المهلهل الخزاعي: ارتحلت إلى الدهناء، فسألت عن مي[3] صاحبة ذي الرمة[4]، فدفعت إلى خيمة فيها عجوز هيفاء فسلمت عليها وقلت: أين منزل مي؟ فقالت: ها أنا مي. فقلت:

[1]- هو صاحب كتاب " مروج الذهب".

[2]- المرجح السابق ص ١٤٠ - ١٤١ .

[3]- هي بنت طلبة بن قيس المنقرية ، وهي صاحبة الشاعر ذي الرمة، وقيل أنه ظل يحبها عشرين سنة.

عجبا من ذي الرمة وكثرة قوله فيك؛ قالت: لا تعجب، فإني سأقوم بعــذره. ثــم قالــت: فلانــة. فخرجت من الخيمة جارية ناهد عليها برقع، فقالت لها: أسفري. لما أسفرت تحيرت لما رأيت من حسنها وجمالها. فقالت: علقني ذو الرمة وأنا في سن هذه، وكل جديد إلى بلى. قلت: عذرتــه والله؛ واستنشدتها من شعره، فأنشدتني.

*وقال أبو صالح الفزاري: ذكرنا ذا الرمة، فقال عصمة بن عبد الملك – شيخ منا قد بلغ عشرين و مائة سنة –: إياي فاسألوا عنه؛ كان من أظرف الناس، آدم، خفيف العارضين، حــسن الضحك، حلو المنطق، وإذا أنشد جشَّ وإذا راجعك لم تسأم حديثه وكلامه.

فجمعني وإياه مُرتَبع، فأتاني يوما، فقال لي: هيا يا عصمة؛ إن مية منقرية، وبنو منقر أخبــث حي، وأقفى للأثر، فهل عندك ناقة نزدار عليها مية؟ قلت: والله عندي الجؤذر. قال: عليَّ بها.

فركبنا جميعا وخرجنا حتى أشرفنا على بيوت الحي، وإذا ببيت مية ناحية، و القــوم خلــوف، والنساء في الرحال، فعرفن ذا الرمة فتقوّض النساء إلى مية؛ وجئنا ثم أنخنا، ثــم دنونــا، فــسلمنا وقعدنا نتحدث؛ فإذا هي جارية أملود[2] واردة الشعر، بيضاء تغمرها صفرة، وعليها ثوب أصــفر، وطاق أخضر؛ فقلن: أنشدنا يا ذا الرمة؛ فقال: أنشدهن يا عصمة. فأنشدتهن:

نظرتُ إلى أظعان مي كأنها ... ذُرا النخل أو أثل تميل ذوائبه[3]
فأعربت العينان و الصدر كاتم ... بمغرورق نمَّت عليه سواكبه
بُكا وامق خاف الفراق و لم تَجُلْ ... جوائلها أسراره ومغايبه[4]

فقالت ظريفة منهن: لكن الآن فلنُجل. قال: فنظرت إليها مية متكرهة، ثــم مــضيت فــي القصيدة، حتى انتهيت إلى قوله:

إذا سرحت من حب مي سوارحٌ ... على القلب آبته جميعا عوازبُه

فقالت لها الظريفة: قتلته قاتلك الله. قالت مية: ما أصحه وهنيئا له! فتــنفس ذو الرمــة تنفــسا ظننت معه أن فؤاده انصدع، ومضيت فيها حتى انتهيت إلى قوله:

---

[1]– هو الشاعر غيلان بن عقبة أبو الحارث. كان شديد القصر، دميما يضرب لونه إلى السواد . أكثر شعرة تشبيب وبكاء أطلال . عشق مي المنقرية واشتهر بها. توفى بأصبهان سنة ١١٧هــ.

[2] – أملود: ناعمة لينة .

[3] – الأثل: شجر من فصيلة الطرفائيات، يكثر قرب المياه في الأراضي الرملية .

[4]– الوامق: الحبيب.

وقد حلفت بالله مية ما الذي أقول لها إلا الذي أنا كاذبه
إذا فرماني الله من حيث لا أرى ولا زال في أرضي عدو أحاربه

فالتفتت إليه مية فقالت: خف عواقب الله، ومضيت في القصيدة حتى انتهيت إلى قوله:

إذا راجعتك القول مية أو بدا لك الوجه فيها أو نضا الثوب سالبه[1]
فيا لك من خد أسيل ومنطق رخيم ومن خلق تعلّل جادِبُه

فقالت الظريفة: أما هذه فقد راجعتك، وقد بدا لك الوجه منها. فمنْ لك بأن ينضو الدرع سالبه؟ فالتفتت مية إليها فقالت: قاتلك الله، ما أنكر ما تجيبني به. فتحدثن ساعة، ثم قالت الظريفة للنساء: إن لهذين لشأنا، فقمن بنا عنهما. فقامت، وقمن معها وقمت معهن، فجلست في بيت أراهما منه، فما رأيته برح من مقعده ولا قعدته، فسمعتها قالت له: كذبت والله. ولا أدري ما قال لها.

فلبثت قليلا ثم جاءني ومعه قارورة فيها دهن ومعه قلائد، فقال: هذا دهن طيب أتحفنا به، وهذه قلائد للجؤذر، ولا والله ما أقلدهن بعيرا أبدا وشدّ بهن ذوائب سيفه، وانصرفنا، فكنا نختلف إليها حتى انقضى الربيع ودعا الناس المصيف، فأتاني فقال: هيا عصمة، رحلت ولم يبق إلا الآثار والرسوم من الديار. وأنشدني:

ألا يا اسْلمي يا دار مي على البِلى ولا زال منهلا بجرعائك القَطْر[2]

مي ومضاض

*وردت قصة مي ومضاض في كتاب "التيجان" لوهب بن منبه على لسان عمه الحارث بن مضاض الجرهمي قال:

لما شبّ مضاض ابن أخي عمرو الملك، لم يكن بمكة ولا ما والاها أجمل منه، وأنه كان من بنات عمه من بيت الملك جارية تُسمى ميّا بنت مهليل بن عامل صاحب الشعب، وكانت معه في نسق واحد، وكانت أجمل من رأته العيون، ففتن بها وفتنت به وشبّ معها وشبّت معه في حي واحد، وصان، منزره عنها وكان ذلك خيفة الطعن في الملك، فلما بلغ بهما الهوى مبلغه، وحذرا من الفضيحة أو القسم والموت بعثا إلى. فشكوا ما نزل بهما من شوق بعضهما إلى بعض، فأرسلت إلى مهليل بن عامر بن عمرو وأعلمته ما كان مهما فقال لي: أيها الملك، أنت وليهما،

---

[1]- نضا الثوب: أي نزعه.

[2]- أخبار النساء في العقد الفريد ص ٢١٥ - ٢١٦.

افعل بهما برأيك وزوجها منه. وقد هجم علينا الشهر الأصم رجب، وكنا لا نحدث فيه حديثا غيـر الطواف والعمرة حتى ينسلخ. فقلت له: يا مهليل ينصرف رجب وأفعل.

وإن مضاضا اعتمر وطاف، وبلغ ذلك ميا، فأقبلت تعتمر وتطوف. متنكرة غيرة على مـضاض أن يتعرض. ومضاض لا يعلم بمكانها. وإن قيس بن سراج الجرهمي من رهط حقير في جـرهم رأى ميا فهويها وهي لا تعلم، ومضاض لا يعلم بذلك. وكان قيس يراعى أحوال مي. فلمـا بلغـه أنها اعتمرت خرج إلى الطواف ليقضى لبانيه من النظر إلى مـي، فكانـت وتراعـى أحـوال مضاض، ومضاض لا يعلم بذلك، ويطوف قيس في إثر مي؛ ومي لا تعلم بذلك. وإن رقيـة بنـت البهلول الجوهمي طافت، وكان يوما قائظا، فطافت رقية بنت البهلول فعطشت عطشا خافت علـى نفسها منه الموت واحتشمت أن تقف لأهل السقاية وسدنة البيت من جرهم، فلما أبصرت مضاضا نادت به لشبيبته وحملها عليه حالة الشباب، فقالت له: يا مضاض، اسقني جرعة من مـاء فـإني خشيت أن أموت ظمأ، فأمر فناولها، فرأته مي حين ناول رقية الماء، فاشتعل قلبها غيرة. فسقطت مغشيا عليها وجعلت ترعد ولا تدرى ما هي فيه. ونظر إليها الحجيج فقيل لهم: عرضت. وإن ميا أدركت نفسها فقامت، فلم تستطيع الطواف وولت إلى منزلها.

وكان منزل أبيها مهليل في سفح جبل بمكة فأتت أباها فقال لها: ما الحجيج يا بنية افتـرق. فقالـت له: لم يفترق الحجيج يا أبة، ولكن الموت لا يكتم وإليك شكواي واستعاني، لأنك عمادي ورجائي. فقال: فمالك يا بنية. قالت له: انصدع قلبي صدعا لن يلتئم بعدها صـدعه. قالـت: يـا أبـت؛ إن مضاضا ابن عمى دعا قلبي فأجابه، فلما أجابه قذف الهوى خلف النوى، قالت له: رأيتـه يلاحـظ رقية بنت البهلول وسقاها ماء ففارق روحي جسمي أسرع من طرفة عين، ثم تـداركت أمـري، ورأيت أنه بدّل حسبا بحسب وخطرا بخطر. ولم يبلغ والله خطر البهلول بن عامر، ولا رقية بنـت البهلول ميا بنت مهليل بن عامر. قال لها أبوها: صدقت، لا ورب الكعبة، ما يكون ذلك. قالت لـه: يا أبت لن والله أقيم بموضع يكون فيه مضاض بن عمرو أبدا، وإني راحلة إلى أخوالي، وأنـشأت تقول:

مضاض غدرت الحبّ و الحبّ صادق

وللحب سلطان يعز اقتداره

غدرت، ولم أغدر و للعهد موثق

وليس في من لا يقر قراره

إذا جاءني ليل تمليت بالذي

دعا كبدي حتى تمكن ضاره

أبيت أقاسي النجم، والليل دامس

و للنجم قطب لا يدور مداره

إذا غاب لم أشهد وكان مجلسه

مجلسي، وداري حيثما كان داره

إذا هاج ما عندي لأول عهده

علاه اشتعال ما يطاق استعاره

وإن قيس ابن سراج أتاها وانشأ يبث لها أخبارا ليفرق بينهما وبين مضاض لما رأى من غيرتها حين سقطت بالطواف، فعمل شعرا على لسان مضاض وشعرا على لسان رقية وقال لها: يا مي، رأيت عجبا. قالت: هو؟ قال: رأيت مضاضا واضعا كفيه على قرون رقية بنت البهلول في الطواف، وهو يدافع عنها أهل الطواف سائحا وبارحا، ثم استسقته ماء، فناولها سقاء بيده فشربت وناولته وأنشأ مضاض يقول: قالت: ما الذي قال يا قيس؟ قال لها: قال:

رقية قلبي قد تباين صدعه

و للحب مني شاهد ودليل

رأيت الهوى يهوى و الوصل واصل

فهل لك أن يلقى الخليل خليل

قال: فأجابته رقية فقالت:

أصون الهوى و الطرف مني كاتم

و لا يعلمون الناس إذ ذاك ما دائي

سوى أنني قد فزت منك بنظرة

تجرعت عذب الحب منها مع الماء

قال: فالتمسها حمية قول قبيس، وجعلت تقبل بين خيام الحي مرة وتدبر أخرى وهي لا تعلم ما هي فيه. ثم قالت لأبيها: نذرت لله نذرا يا أبت، لنرحل غدا إلى "أمج ذات الضال" وأنزل مع "جسر بن قين". قال لها أبوها: نعم. وحملته الحمية و الإنفة على ذلك، لما استبدل بخطره وقدره.

وإن رجلا من أهل الحي بلغ مضاضا فأعلمه بما قال قيس وبما قالت مي، فركب فرسه وأخذ سيفه، وخرج يريد قتله، وأُنذر قيس بمكان مضاض، فخرج هاربا في البيداء، فما أدرى أي

الأرض انطوت عليه إلى يومنا هذا. فلما لم يجد مضاض من قيس أثرا وأعجزه هربا رجع إلـــى مي، وأصاب أهل الحي يحتملون، وأصاب ميا راكبة على نجيب في هودجها، فقصدها. وقال: يـــا مي، أعيذك بالله أن تغدري من لم يغدرك، وهذا موقفي بين يديك، فجودي لمن لم يجتـــرم جرمـــا، وقال:

يعشى من الناس لحظ طرفي

وعندك يا مي غير عاش

أتهجريني بغير ذنب

وتقتليني بقول واشي

قال: فولت عنه وعيناه تغرورقان دموعا وتبعها وهي تقول:

كذبت هوى وخنت إذا يميني	إذا طالبت أثرا بعد عين
سأرحل و الفؤاد له وجيب	وأقطع للنوى بينا ببين[1]
إذا شط المزار عن ابن عمرو	نزلت بقرب جسر بن قين
كأني أطلبه وصالا	ويصرمه أطالبه بدين
تعست إذا وخان أبي وأمي	وبعت بعارها زيني بشين

وتجهمته...وتمادى الحي للرحلة ومضوا وافترق الحي من سفح الجبل...وإن مضاضا لمـــا ظعـــن الحي رجع، فركب ناقة وبدّل زيه وخرج في طلب الحي، وكان له خليلان[2] من بنى عمه عمـــرو وعامر، فركبا في أثره حتى لحقاه فقالا له: يا مضاض، خالفت تاج الملك بطلاب الهـــوى. قـــال لهما: غلب الهلع التجلد والجزع الصبر و الهوى حاكم و القلب محكوم عليه....."

ثم جعل يدور حول "أمج" من حي إلى حي وهو ينشد الشعر، ثم بلغه أن أباها يريد الرحيـــل إلـــى مكة فاستبشر بذلك وأنشد شعرا، وفي طريقهم إلى مكة جعل يتعرض لها مرة عند موضـــع يُقـــال له الجار وهو ينشدها شعرا يبثها عاطفته ومرة عند موضع يقال لها الدار وهو أنشدها فيـــه أبياتـــا يسترضيها وينبئها بأنه إذا لم يكن منها وصل فسيكون موطن الموت داره".

قال الحارث:

"فولّت عنه وتجهمته و قالت له: و الله لا ألقاك بها أبدا، فولّى إلى صـــاحبيه، وقـــــــال: "والله لا أشرب بعدها ماء "، وأنف أن يدخل مكة، ومضى معه صاحباه يستعطفانه علـــى شُـــرب

---

[1]- البين: الفراق.

[2]- الخليل: الصديق.

الماء، فأبى لهما، فجال حتى غلب عليه العطش وانصدع قلبه في صدره لما خامره اليـأس حتى بلغ هذا الموضوع، فغشيه الموت فأناخ ناقته، وأخذ رأسه عمرو، وجعله في حجره وقال له: قصفك الدهر يا مضاض. ففتح عينيه وقال له: قصفني قيس...."

ثم جعل ينشد أبياتا من الشعر إلى أن مات، وأوصى أن يدفنه عمه الحارث بين الدوحتين.

أما ما كان من أمر مي، فقد لقيتها رقية وأخبرتها بالحقيقة، وأنه لم يكن بينها وبين مضاض شيء، وأن الشعر منحول نحله قبيس، فندمت مي، وبعثت إلى مضاض فنُعي إليها.

قال الحارث:

"فتوارت عن الحي إلى قلعة أمام الحي، و تبعتها جارية من بنات الحي يُقال لها سلمى بنت عمها كانت مؤانسة لها مطلعة على أسرارها، فوجدتها ساكتة تنظر يمينا وشمالا كأنها جُنت. قالت: يا مي، أراك هبلاء، وقد مات مضاض. قالت لها: قسوة قد أدركتني منعتني الدمع، وفي راحة لو أصبت إليه سبيلا، فلما سمعت نساء الحي ينتحبن وعلت أصواتهن أجابها الدمع وبكت، وأنشأت تقول شعرا:

أيا موطن الموت الذي فيه قبره سقتك الغوادي الساريات الهوامع

ويا ساكنا بالدوحتين مغيبا لئن طرت عن إلف، فإلفك تابع

ثم آلت على نفسها أيضا ألا تشرب الماء، وفي اليوم الثالث غشيها الموت، فولّت إلى الربوة، فلما بلغت أعلاها سقطت.

قالت سلمى الجارية:

"فوضعت يدي على فمها فوجدته كالحجر الصلد، فرفعت رأسها إلى بلسان غليظ و بصوت خفي، فقالت بكلام ضعيف لا أكاد أبينه:

" قولي لأبي يدفنني بالدوحتين بجوار مضاض".

ليلى الأخيلية وتوبة بن حُمَير

*جاء في كتاب "العقد الفريد" لابن عبد ربه:

قال أنيس العامري: كان توبة[1] بن الحُمَيّر أحد بني الأسدية، وكان يتعشق ليلى[1] بنت عبد الله ويقول فيها الشعر، فخطبها إلى أبيها فأبى أن يزوجه إياها وزوجها في بني الأدلع. فجاء يوما لما

[1]- توبة بن الحمير: أبو حرب ، شاعر من عشاق العرب المشهورين ، كان يهوى ليلى الأخيلية وخطبها ، فردها أبوها ، وزوجها غيره . فانطلق يقول الشعر مشببا بها ، واشتهر أمره وسار شعرة ، وكثرت أخباره . قتله بنو عوف بن عقيل سنة ٨٥ هـ. " الأغاني للأصفهاني".

كان يجيء لزيارتها، فإذا هي سافرة ولم ير منها إليه بشاشة، فعلم أن ذلك لأمر ما كـــان، فرجـــع إلى راحلته فركبها ومضى، وبلغ بنى الأدلع أنه أتاها فتبعوه ففاتهم. فقال توبة في ذلك:

نأتْك بليلى دارها لا تزورها   وشطَّت نواها واستمر مريرها [2]

وهي طويلة، يقول فيها:

وكنت إذا ما جئت ليلى تبرقعت   فقد رابني منها الغداة سفورها[3]

وقال أبو عمرو بن العلاء: سأل معاوية بن أبى سفيان ليلى الأخيلية عن توبة بن الحميـــر فقـــال: ويحك يا ليلى! أكما يقول الناس كان توبة؟ قالت: يا أمير المؤمنين ليس كل ما يقول النـــاس حقـــا، والناس شجرة بغى يحسدون أهل النعم حيث كانوا وعلى من كانت. ولقد كان يا أميـــر المـــؤمنين سبط البنان[4]، حديد اللسان، شجا للأقران[5]، كريم المَخبر، عفيف المئزر، جميل المنظر. وهـــو يـــا أمير المؤمنين كما قلت له، قال: وما قلت له؟ قالت: قلت ولم أتعدَّ الحق وعلمي فيه:

بعيد الثرى لا يبلغ القوم قعره   ألدُّ مُلدّ يغلب الحق باطلُه[6]

إذا حلّ ركب في ذراه وظله   ليمنعهم مما تخاف نوازله

حماهم بنصل السيف من كل فادح   يخافونه حتى تموت خصائله[7]

فقال لها معاوية: ويحك! يزعم الناس أنه كان عارها خاربا[8]. فقالت من ساعتها:

معاذ إلهي كان والله سيدا   جوادا على العِلات جما نوافله[9]

عفيفا بعيد الهم صُلبا قناتُه   جميلا محيًّا غوائله

وقد علم الجوع الذي بات ساريا   على الضيف و الجيران أّنك قاتله

---

[1]- هي ليلى بنت عبد الله بن الرحال بن شداد بن كعب بن معاوية، وهو من الأخيل وهو فارس الهزار ، ابن عبادة بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، وهي شاعرة عربية مشهورة ، وصاحبة توبة بن خمير .

[2]- النأيي : البعد ، وشطت : بعدت، واستمر : اشتد ، و المريرة : العزم .

[3]- تبرقعت : لبست البرقع وغطت وجهها .

[4]- سبط البنان : طويلة .

[5]- شجا الأقران : جمع قرين وهو الصاحب و الشريك .

[6]- ألد : شديد الخصومة .

[7]- الفادح الصعب المثقل .

[8]- خاربا : جبانا .

[9]- النوافل : جمع نافلة أي العطاء .

فقال لها معاوية: ويحك يا ليلى! لقد جزت بتوبة قدره، فقالت: و الله يا أمير المؤمنين لــو رأيته وخبرته لعرفت أني مقصرة في نعته وأني لا أبلغ كُنه ما هو أهله. فقال لها معاوية: مــن أي الرجال كان؟ قالت:

أتته المنايا حين تمَّ تمامه   وأقصر عنه كل قرن يطاوله
وكان كليث الغاب يحمى عرينه   وترضى به أشباله وحلائله
غضوب حليم حين يطلب حلمة   وسم زعاف لا تصاب مقاتله

قال: فأمر لها بجائزة عظيمة.

وقالت ليلى ترثيه:

كم هاتف بك من باك و باكية   يا توب للضيف إذ تدعى و للجار
وتوب للخصم إن جاروا وإن عدلوا   وبدلوا الأمر نقضا بعد إمرار
إن يصدروا الأمر تطلعه موارده   أو يوردوا الأمر تُحللْه بإصدار

وقالت:

هراقت بنو عوف دما غير واحد   له نبأ نجديه سيغور[1]
تداعت له أمناء عوف ولم يكن   له يوم هضب الردهتين نصير

وقالت:

يا عين بكى بدمع دائم السَّجم   وابكي لتوبة عند الروع والبُهم[2]

وقالوا: إن ليلى الأخيلية أقبلت من سفر، فمرت بقبر توبة ومعها زوجها وهي في هــودج لها. فقالت والله لا أبرح حتى أسلم على توبة، فجعل زوجها يمنعها من ذلك وتأبى إلا أن تلم بــه. فلما كثر ذلك منها تركها، فصعدت أكمة عليها قبر توبة، فقالت: السلام عليك يا توبة، ثــم حولــت وجهها إلى القوم، فقالت: ما عرفت له كذبة قط قبل هذا. قالوا: وكيف؟

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت   عليّ ودوني تربة وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أو زقا   إليها صدى من جانب القبر صائح
وأُغبط من ليلى بما لا أناله   ألا كل ما قرت به العينُ صالح[3]

[1]- هراقت: أراقت .

[2] - البهم: جمع بهمة ، وهو الشجاع الذي يستبهم مأتاه على أقرانه .

[3] - أغبط: أحسد .

فما باله لم يسلم عليّ كما قال؟... وكانت إلى جانب القبر بومة كامنة، فلما رأت الهودج واضطرابه فزعت وطارت في وجه الجمل، فنفر فرمى بليلى على رأسها، فماتت من وقتها، فدفنت إلى جنبه. وهذا هو الصحيح من خبر وفاتها.

ليلى و صخر

*وحكى المدايني: أن رجلا من بني عقيل كان يُسمى صخرا وكانت له ابنة عم تدعى ليلى فكان بينهما حب مبرح ولم يكن أحدهما يصبر عن الآخر ساعة واحدة وكان لهما مكان يجتمعان فيه للحديث في كل ليلة ثم أن أبا صخر زوج صخرا لامرأة من الأزد وصخر لذلك كاره، فلما بلغ ليلى الخبر قطعته فمرض مرضا شديدا فكان أهله يقولون سحرته ليلى لما كانوا يرونه يصنع بنفسه وكانت ليلى أشد وجدا به وحبا له فأرسلت جاريتها إليه وقالت لها: اذهبي إلى مكاننا وانتظري هل ترى صخرا فإذا رأيته فقوله له:

تعساً لمن بغير ذنب يصرُمُ   قد كنت يا صخر زمانا تزعم

أنك مشغوف بنا متيم   حتى بدا منك لنا الجمجم[1]

قال: فأتته الجارية فأبلغته قولها ووجدته كالشن البالي[2] وجدا وحزنا.

فقال: قولي لها:

فهمت الذي عيّرت، والله شاهد   لما كان عن رأيي ولا كان عن أمري

فإن كنت قد سميت صخرا فإنني   لأضعف عن حمل القليل من الهجر

ولست ورب البيت أبغي سواكم   حبيبا ولو عشنا إلى ملتقى الحشر

فقالت له الجارية: يا صخر إن كنت كارها لتزويج أبيك لك فاجعل أمر امرأتك بيدي لتعلم ليلى أنك لغيرها، قالٍ[3] ولعهدها راعٍ وأنك مكرها، قال: قد فعلت، قالت: فهي طالق منك ثلاثا، وأخبرت ليلى فأظهرت من ذلك جزعا و تراجعا إلى ما كانا عليه من اللقاء و الجارية تختلف بينهما ولم يظهر صخر طلاق امرأته حتى قال له أبوه: يا صخر ألا تبتنى بأهلك؟ قال: وكيف وقد بانت منى في يمين حلفت بها فأعلم أبوه أهل المرأة فقالت المرأة تهجو ليلى:

ألا بلغا عنى عقيلا رسالة،   فما لعقيل من حياء ولا فضل[4]

نساؤكم شر النساء، وأنتم   كذلك إن الفرع يجرى على الأصل

أما فيكم حرٌّ يغار بأخته؟   وما خير حرّ لا يغار على الأهل

---

[1]- المشغوف : العاشق الملتهف . والجمجم : أي الخفي .

[2]-الشن البالي : أي كالقربة البالية .

[3]- القالي : المبغض والهاجر .

[4]- عقيل : أي قبيلة بنى عقيل .

قال: وهجتها ليلى حتى شاع خبرها وسعت الجارية إلى أهل صخر وأهل ليلى وما هما عليه وأنهما يخاف عليهما من لؤم الفعل ولم تزل حتى جمعت بينهما وتزوجهما.[1]

ليلى و الصحصاح
ولبنى و غانم

*تزوَّج الحارث من رباب بعد أن هام بها حبا " ثم رأت في منامها ولذيذ أحلامها كأنها في صحراء من الصحراوات وحولها فسيح البراري المقفرات وخرج من تحتها نار متأججة ولها ألوان متوهجة " ثم أحرقت جميع ما على الأرض وبعد ذلك استدارت واستنارت، فتلجأ إلى كاهن فيبشرها بمولود له شأن وأن والدته سوف تموت حين يخرج إلى الدنيا، ثم يموت الحارث فتلحق رباب بقومها وتستصحب معها في الطريق غلاما لها فيراودها عن نفسها فتأبى فيدور بينهما صراع كان من شدته أن "دفق عليها الدم ولحقها الطلق بإذن خالق الخلق" فيثور العبد ويضربها بالحسام ويتركها مجندلة في البرية و بجوارها ذلك الرضيع، وتسوق الأقدار أميرا يُقال له دارم، فيدفن المرأة ويحمل الطفل ليتبناه ويسميه "جندبة " فيشب الطفل ويشتهر بالشجاعة و البأس وفي يوم تقوم معركة بين الأمير دارم وامرأة يُقال لها الشمطاء فتأسره وتأسر أولاده فهبَّ جندبة لنجدتهم وينقذهم من الأسر، ويشيع ذلك الخبر، ويشتهر أمر جندبة فيأكل الحسد قلب دارم ويعزم على إخراج جندبة من بينهم.

فخرج جندبة حتى لاح له خباء مضروب فقصده فخرج له منه "إنسان تام الطول كأنه فحل من الفحول"، فتأمله جندبة على ذلك الطول فإذا هو شاب أجرد أمرد عليه درع من الزرد وهو مضاعف العدد، ويدور بينهما قتال ينتصر فيه جندبة ويكشف الفارس عن نفسه، فإذا هو فتاة تسمى "قتالة الشجعان" كانت قد حلفت ألا تتزوج إلا صنديدا يقهرها، فرضت بجندبة زوجا، ثم تصادف أن استخلص جندبة رحل الخليفة من أيدي غاصبين وحمل ذلك الرحل إلى الخليفة بالشام ومعه زوجه "قتالة الشجعان" التي ما إن يراها هشام بن عبد الملك حتى يقع في حبها ويرسل إليها دايته، فتغضب قتالة ويغضب زوجها ويخرجان من دمشق.

"إلا أنه "يا سادة" ما سار عن دمشق قدر ميل أو فرسخ طويل ولم يشعروا إلا وقد خرج عليهم كمين وهو قدر خمسمائة فارس وهشام في مقدمتهم، فيغتصبون قتالة ويسيرون بها نحو الشام." ولا يستطيع جندبةٍ أن يطاول يد الخلافة فيتسلى بزوجة جديدة عن قتالة التي امتنعت عن

[1]- أخبار النساء لابن الجوزي ص ١٧٠ .

هشام حتى اغتاظ منها فقتلها، ويعلو شأن جندبة ثم يلحقه الموت ويترك زوجه حاملا التـي تلجـأ إلى عطاف أخي جندبة، وكانت زوج عطاف حاملا أيضا فتضع بنتا سموها ليلى" بوجه مثل القمر الوضاح لو بدت في الليل المظلم لصار صباح كأنها تبتسم عن ثغر منظور قد سرقت قـدها مـن قضيب و استوهبت ردفها من كثيب...الخ". وفي اليوم نفسه تضع زوجـة جندبـة ولـدا سـموه "الصحصاح" بوجه صبيح وقدٍ مليح ولسان فصيح تبان النجابـة مـن عينيـه و الـشجاعة مـن كفيه...الخ.

وهنا تبدأ السيرة فتتحدث عن قصة غرامية بطلاها " ليلى و الصحصاح". فتتـشابه هـذه القصة في أولها مع قصص العشاق العذريين، فقد أحبّ الصحصاح ابنة عمه وأحبته وأنـشد فيهـا الأشعار، فلما شاعت وقف عمه عطاف في وجهه ومنعه من رؤية ليلى فزاد ما به وازداد النـصح واللوم له ثم اعتزل وأمه المضارب وكانت ليلى تبكي وترسل إلى الصحصاح تبثه الغـرام وتنـشد فيه الأشعار ولكن الصحصاح لا يكتفي بهذا الموقف السلبي فيخطو خطوة إيجابية.

فقد خلا في بعض الأيام بنفسه وقال: ما لي أرى جسدي يذوب ذوب الرصـاص فلـمَ لا أسرع إلى الخلاص من ضيق الأنفاس فإلى متى أكون في موضع لا أقدر فيه على ليلى ولا أنظر إليها، وأنا ما فيَّ عيب إلا فقرى، وما لي إلا أخرج عن أرض بنى كلاب و أتغرب، فـإن بقـائي عندهم سواء غيابي وحضوري سواء، وما لي لا أهج في البراري و القفار. "ويعزم الصحـصاح على الإغارة على القبائل ويُكتب له النجاح ويسوق الغنائم ويشتهر أمره، فيأكل الحسد قلـب عمـه ويخشى من منافسة الصحصاح على رياسة القبيلة، فيدبر المؤامرات الحقيرة لقتله، والصحـصاح تعاونه ليلى يتغلب على كل المؤامرات ولكنه لا يحقد على عمه لأنه يحب ليلى، بل أنقذ في إحـدى المرات عمه من مخالب الأسد، فتنزل المحبة بدل العداوة في قلب العـم، و يوافـق علـى زواج الصحصاح من ليلى، ولكن الصحصاح يعزم على أن يسوق الكثير من الأموال مهرا لليلى.

فيخرج في طلب ذلك المهر ومعه عبده نجاح يقطعان الروابي و البطاح حتى وصلا إلـى واد كثير الغدران، وإذا بصياح عال وسيوف مجذبة بأيدي رجال، وقد قبضوا على شـاب ظـاهر الجمال، وقد ظهرت جارية مليحة القوام وفي يدها سيف أبتر وهي تقول: "وحق الركن و الحجـر لئن لم تطلقوا ابن عمى لأجعلن هذا السيف في بطني وأخرجه من ظهري". ويستطلع الصحـصاح الخبر، وإذا بقصة حب طريفة بطلاها "لبنى وغانم".

فقد نشأ غانم مع لبنى ابنة عمه فأحبها وأحبته وكان يعرف أنها له لأن أباه قبل أن يمـوت أوصى عمه بذلك و ترك له المهر، ولكن العم كان شريرا، فاستولى على المال واخذ يعـد غـانم

الوعود حتى طلب غانم من عمه أن يبر بوعده فقال له: "يا ولدى حتى تغنم لنا غنيمة"، وهو يريد أن يخرج غانما إلى الغارات حتى يلقى حتفه، فيزوج ابنته لبعض الملوك، وخرج غانم وأخذ يغير على القبائل حتى غنم الكثير وعاد محملا بالمال، ولكنه فوجيء بأن عمه قد زوَّج في غيابه لبنى لملك حضرموت بعد أن أخبر ابنته أن غانما قد قُتل في إحدى الغارات، ويرتاع غانم لهذه الأخبار، ولكنه يعزم على أمر فيتنكر في ثياب راعى ويدخل على لبنى خيمتها فتثب إليه فيعتنقان، وتعرض عليه فكرة الهرب فيحملها خلفه على فرسه، ولكن القوم ينتبهون فيحيطون بغانم. ويدور قتال يتكاثرون فيه على غانم ويأسرونه. ولما عرف الصحصاح سر هذا الصياح هبَّ لنجدة عاشق مثله فتقلد سيفه وقتل الزوج والعم، ثم زوَّج غانم من لبنى.

ثم سار في طريقه حتى سمع أيضا صياح نسوة وإذا بقُطَّاع طرق يهجمون على حجاج بيت الله الحرام فيسارع الصحصاح لإنقاذهم لأنه كما يقول عن نفسه: "ولقد سلوت حب ليلى باصطناع المعروف وإغاثة الملهوف". ويتبين له أنه أنقذ مروة بنت عبد الملك التي تخلفت عن الركب مخافة من شاعر يُقال له عمر بن أبي ربيعة المخزومي كان يتعرض للنساء ويصف محاسنهن، وتعزم عليه أن يسير معها إلى دمشق لينال جائزته، ويتلقاه أهل دمشق بالحفاوة والترحيب. ومن الطريف أنه في غمرة هذه الأحداث لم تغب ليلى عن باله فحين يفتح له الخليفة باب التمني يقول: "ما أتمنى إلا مهر ليلى"، وحين طلب منه مسلمة بن عبد الملك أن يتمنى على أبيه أن يعطيه مُلك العرب يرد على مسلمة: "يا مولاي ومهر ليلى أين يكون"، ويجعله الخليفة ملكا على العرب ويجعل مشيره ابنه مسلمة.

ثم يحمله الاشتياق على العودة إلى ليلى. وفي طريقه يمر بمضارب الحريث بن الحجاج وإذا به يفاجأ أن ليلى في هذه المضارب تنتظر أن تزف على الحريث وأن غانما صديقه أسير عند الحريث ويكتشف له الأمر ويعرف أن الحريث في غيابه قد أغار على قومه، فلما رأى ليلى هويها فخطبها من أبيها فوافق، ثم سار بها إلى محلته. وفي طريقه مرَّ على ابن خالته غانم، ولما علم غانم أمر ليلى صاحبة صديقه الصحصاح الذي اصطنع معه ومع لبنى معروفا، طلب من الحريث أن يرد ليلى إلي قومها، فأجابه: "يا بن الخالة إنْ أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع، وليلى الكلابية مثل ليلى العامرية وقد أصبحت أنا في هواها مثل قيس ابن الملوح من بلواها و الوصال إليها أصلح ومنْ وصل إليها فقد أفلح فأعرض عن هذا النصح ولا تنصح..."، ثم يسوء الأمر

بينهما ويدور قتال ينتصر فيه الحريث ويأسر غانما ويأخذ ليلى. ولمـــا علـــم الصحـــصاح بهـــذه الأخبار، قاتل الحريث وانتصر عليه واستخرج غانما واستخلص ليلاه[1].

ليلى العامرية والمجنون

*اختلف الرواة في سبب عشق المجنون[2] ليلى[3]، فذكر ابن عبد ربه في "العقد الفريـــد" أن سبب عشقه لها: أنه أقبل ذات يوم على ناقة له كريمة وعليه حلتان من حلل الملوك، فمرَّ بـــامرأة من قومه يُقال لها: كريمة وعندها جماعة نسوة يتحدثن فيهن ليلـــى، فـــأعجبهن جمالـــه وكمالـــه، فدعونه إلى النزول والحديث، فنزل وجعل يحدثهن وأمر عبدا له كان معه فعقر لهن ناقته، وظـــل يحدثهن بقية يومه، فبينا هو كذلك إذ طلع عليهم فتى عليه بردة من برد الأعراب يُقال له "منـــازل" يسوق معزى له، فلما رأينه أقبلن عليه وتركن المجنون وخرج من عندهن.

فلما أصبح عاد فألفي ليلى قاعدة بفناء بيتها وقد علِقَ حبه بقلبها وهويته، فبينا هي تحدثـــه إذ أقبل فتى من الحي فدعته وسارته سرارا طويلا، ثم قالت له: انـــصرف ونظـــرت إلـــى وجـــه المجنون قد تغيَّر وانتقع لونه وشقَّ عليه فعلُها، فأنشأت تقول:

كلانا مظهر للناس بغضا	وكل عند صاحبه مكين[4]
تبلغنا العيون بما أردنا	وفي القلبين ثَم هوى دفين

فلما سمع البيتين شهق شهقة شديدة وأُغمى عليه، فمكث على ذلك ساعة ونـــضحوا المـــاء على وجهه حتى أفاق، وتمكن حبّ كل واحد منهما في قلب صاحبه حتى بلغ منه كل مبلغ.

ولما شُهر أمر المجنون وليلى وتناشد الناس شعره فيها، خطبها وبذل لهـــا خمـــسين ناقـــة حمراء، وخطبها ورد بن محمد العقيلي وبذل لها عشرا من الإبل وراعيها، فقـــال أهلهـــا: نحـــن

---

[1]- قصص الحب العربية ص ٨٠- ٨٤ .

[2]- هو قيس بن الملوح بن حزام العامري من بنى عامر بن صعصعة الذي قتله الحب في ليلى بنت مهدي، وتوفى حوالي سنة ٧٠ هـ.

[3]- هي لبنى بنت مهدي بن سعد بن مهدي بن ربيعة بن الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة التي عشقها قيس بن الملوح.

[4]- مكين : متين وراسخ .

مخيروها بينكما، فمن اختارت تزوجته، ودخلوا إليها فقالوا: والله لئن تختاري وردا لنمثلن[1] بك، فاختارت وردا وتزوجته على كره منها.

بينما ذكر الذهبي في "نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء": أن المجنون علق ليلى علاقة الصبا و كانا يرعيان البهم[2] من قوله فيها:

تعلقت ليلى وهي ذات ذؤابة   ولم يبد للأتراب من ثديها حجم

صغيرين نرعى البهم يا ليت أننا   إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهم

فاشتد شغفه بها حتى وسوس وتخبل في عقله. تزايد به الأمر حتى فقد عقله فكان لا يؤويه رحل، ولا يعلوه ثوب إلا مزقه، ويُقال: أن قوم ليلى شكوا المجنون إلى السلطان فأهدر دمه[3]، وترحل قومها بها فجاء و بقى يتمرغ في المحلَّة ويقول:

أيا حرجات الحي حيث تحملوا   بذي سلم لا جاد كن ربيع[4]

وخيماتك اللاتي بمنعرج اللوى   بلين بلى لم تبلهُن ربوع[5]

وقيل: إن قومه حجوا به ليزور النبي صلى الله عليه وسلم و يدعو حتى إذا كان بمنى سمع نداء: يا ليلى! فغُشى عليه وجزعت هي لفراقه وضنيت، وشعره كثير من أرق شيء وأعذبه، وكان في دولة يزيد وابن الزبير.

ولما تزوّجت ليلى صاحبة قيس بن الملوح، هام على وجهه مع الوحش وكان يقول:

لها في سواد القلب تسعة أسهم   وللناس في ذاك المكان عشير[6]

ولست بمحصن حب ليلى لسائل   من الناس إلا أن يقول كثير

وتنشر نفسي بعد موتى لذكرها،   فموت لنفسي مرة ونشور[7]

أتاني بظهر الغيب أنْ قد تزوجت   فكادت بي الأرض البراح تمور[8]

فقلت: وقد أيقنت أن ليس بيننا   تلاق وعيني بالدموع تفور

---

[1]- مثل به : نكل به .

[2]- البهم : جمع بهيمة وهو الصغير من الضأن.

[3]- الذؤابة : الخصلة من الشعر، و الأتراب : الأقران و الأمثال . أهدر دمه : أباح قتله.

[4]-حرجات : جمع حرجة وهى الغيضة الملتفة الشجر وذو سلم : موضع بالحجاز.

[5]- البلى : الفناء . والربوع : جمع ربع : وهى الدار .

[6]- سواد القلب : حبته أو دمه.

[7]- النشور : البعث بعد الموت.

[8]- البراح : المتسعة ، وتمور : تدور وتضطرب .

لئن كان يهدى بردُ أنيابها لأفقر منى إنني لفقير[1]

فما أسرع الأخبار أن قد تزوجت، فهل يأتيني بالطلاق بشير؟[2]

وقال يونس النحوي: لما اختلط عقل قيس بن الملوح وترك الطعام و الشراب مضت أمه إلى ليلى فقالت لها: إن قيسا قد ذهب حبك بعقله وترك الطعام و الشراب، فلو جئت وقتا لرجوت أن يثوب إليه بعض عقله، فقالت ليلى: أما نهارا فلا لأنني لا أمن قومي على نفسي ولكن ليلا، فأتته ليلا فقالت له: يا قيس إنَّ أمك تزعم أنك جننت من أجلي وتركت المطعم و المشرب، فاتق الله وأبق على نفسك، فبكى وأنشأ يقول:

قالت جننت على أيش، فقلت لها الحب أعظم مما بالمجانين[3]

الحب ليس يفيق الدهر صاحبه وإنما يُصرع المجنون في الحين

قال: فبكت معه، وتحدثنا حتى كاد الصبح أن يسفر، ثم ودعته وانصرفت، فكان آخر عهده بها.

وبلغ قيساً أن ليلى بالعراق مريضة، فقال:

يقولون ليلى بالعراق مريضة فما لك تجفوها وأنت صديق

شفي الله مرضى بالعراق فإنني على كل شاك بالعراق شفيق[4]

وتمر الأيام، وقيس لا يزداد إلا سوءاً، ويخرج يطوف في الفلوات وقلل الجبال، واعتراه الشحوب والهزال، وبقية من عقل شارد كلما تاب إليه فزع إلى شعره يبثه ما يلقاه في حب ليلى من عناء وشقاء وما يقاسيه بسببه من كرب وتباريح، حتى يلقى منيته في واد خشن كثير الحجارة، بعيداً عن ليلى التي وهب لها حياته وفنه، بعيداً عن أبيها الذي كان سبب شقائه وبلواه، ولكنه لا ينسي أن يوجه إليه قبل أن يودع الحياة هذه الأبيات التيي وُجدت.. بعد موته مكتوبة إلى جواره، والتي صور فيها ما تقيض به نفسه من حقد عليه، كما صور فيها مأساته الحزينة تصويراً دقيقاً مؤثراً:

ألا أيها الشيخ الذى ما بنا يرضْى *** شقيت ولا هُنيت منْ عيشك الغضّا

شقيت كما أشقيتنى وتركتنى *** أهيم مع الهُلاك لا أطعمْ الغمضا

كأن فؤاد فى مخالب طائر *** إذا ذكرتْ ليلى يْشدَ بها قبضا

---

[1] - يهدى : يقدم ، وبرد أنيابهم : كناية عن رضابها الذي يبرد غلة الحبيب ، والعلي : الرفعة .

[2] - أخبار النساء لابن القيم الجوزي ص ٧٣.

[3] - أيش : أي شيء .

[4] - العقد الفريد لابن عبد ربه .

كأن فجاج الأرض حلقه خاتم *** على فما تزداد طولا ولا عَرْضا

لُبنى وقيس بن ذريح

*أحبَّ قيس بن ذريح لبنى بنت الحبَاب، وهو مُضَرِيّ من كنانة، وهي يمنية من خزاعــة، تجمع بينهما صلبة نسب من جهة الأم، فقد كانت أم قيس خزاعية. وكانت لبنى امرأة مديدة القامــة شهلاء[1] حلوة المنظر. فلما رآها قيس في إحدى زياراته لأخواله الخزاعيين وقعتْ في نفــسه، ثــم تردد عليها وشكا لها حبه فأحبته، وسأل أباه أن يزوجه إياها فأبى عليه وقــال: يــا بنـــيّ، عليــك بإحدى بنات عمك فهنّ أحق بك. فأتى قيس الحسين بن على رضى الله عنه، فهو كان أخــاه فـــي الرضاعة، فشكا إليه، فأتى الحسين رضى الله عنه ذريحاً أباه وقومه وهم مجتمعون، فقــاموا إليــه إعظاماً له. فقال لذريح: أقسمت عليك إلاّ خطبتَ لُبنى لابنك قيس قال: السمع والطاعــة لأمـــرك. فخرج معه في وجوهٍ من قومه حتى أتوا لُبنى فخطبها ذريح على ابنه إلى أبيهــا فزوّجـــه إيّاهــا وزُفت إليه، وتحقق لقيس أمله.

فأقامت معه مدّة لا يُنكر أحد من صاحبه شيئاً، وكان ابرَّ الناس بأمّه، فألهتْه لُبنى وعكوفُــه عليها عن بعض ذلك، فوجدت أمَّه في نفسها وقالت: لقد شغلتْ هذه المرأة ابني عن برّي، ولم يـــر للكلام في ذلك موضعاً حتى مرض مرضاً شديداً. فلما برأ من علته قالت أمُه لأبيه: لقد خشيتُ أن يموت قيس وما يترك خلقاً وقد حُرم الولد من هذه المرأة، وأنــت ذو مــالٍ فيــصير مالـــك إلـــى الكلالة[2]، فزوجه بغيرها لعلّ الله ان يرزقه ولداً، وألحت عليه في ذلك. فأمهل قيساً حتى إذا اجتمـــع دعاه فقال: يا قيس، إنك اعتللت هذه العلّة فخفتُ عليك ولا ولد لك ولا لي سواك. وهـــذه المـــرأة ليست بولّود؛ فتزوَّج إحدى بنات عمّك لعلّ اللّه أن يهب لك ولداً تَقرُّ به عينُك وأعيننُا.

فقال قيس: لستُ متزوّجاً غيرها أبداً. فقال له أبوه: فإن في مالي سعةً فتسرُّ بالإماء. قـــال: ولا أسوؤها بشيءٍ أبداً واللّه. قال أبوه: فإني أقسم عليك إلا طلّقتها. فأبى. وقال: الموتُ واللّه عليّ أسهلُ من ذلك، ولكني أخيِّرك خصلةً من ثلاث خصال. قال: وما هي؟ قال: فما فيَّ فضلة لـــذلك. قال: فدّعني أرتحلْ عنك بأهلي واصنع ما كنت صانعاً لو متُّ في علتي هذه. قال: ولا هذه. قـــال: فأدَعُ لُبنى عندك وارتحل عنك فلعلّي أسلوها فإني ما أحبّ بعد أن تكون نفسي طيبـــة أنهـــا فـــي خيالي. قال: لا أرضى أو تطلّقها، وحلف لا يكنُّه سقفُ بيتٍ أبداً حتى يطلق لبنى.

---

[1]- عينٌ شهلاء: العين التي يخالط سوادها زرقة.

[2]- الكلالة: الزوال.

فكان يخرج فيقف في حرّ الشمس، ويجيء قيس فيقف إلى جانبه فيُظلّه بردائه ويَصلى هو بحر الشمس حتى يفيءَ الفيءُ فينصرف عنه، ويدخل إلى لبنى فيعانقها وتعانقه ويبكي وتبكي معه وتقول له: يا قيس، لا تُطعْ أباك فتهلك وتهلكني. فيقول: ما كنت لأطيع أحداً فيك أبداً. فيُقال: إنه مكث كذلك سنةْ وقيل: أربعين يوماً ثم طلقها.

ورووا في خبر طلاقه أنه لما بانت لبنى بطلاقها إياه، وفرغ من الكلام لم يلبث حتى استطير عقله وذُهبَ به ولحقه مثل الجنون. وتذكر لبنى وحالها معه فأسف وجعل يبكي وينشج أحرَّ نشيج. وبلغها الخبر فأرسلت إلى أبيها ليحتملها، وقيل: بل أقامت حتى انقضت عدتُها وقيس يدخل عليها.

فأقبل أبوها بهودج على ناقة وبإبل تحمل أثاثها. فلمّا رأى ذلك قيس أقبل على جاريتها فقال: ويحك! وما دهاني فيكم؟ فقالت:لا تسألينى وسَلْ لبنى. فذهب ليُلمَّ بخبائها فيسألها فمنعه قومها. فأقبلت عليه امرأة من قومه، فقالت له: ما لك ويحك تسأل كأنك جاهل أو تتجاهل، هذه لبنى ترتحل الليلة أو غداً، فَسَقَطَ مغشياً عليه. فلما ارتحل قومها، وعلم أن أباها يمنعه من المسير معها، وقف ينظر إليهم ويبكي حتى غابوا عن عينه فكرَّ راجعاً ونظر إلى أثر خُفَّ بعيرها فأكبّ عليه يقبّله موضع مجلسها وأثر قدميها. فَليمَ على ذلك وعنّفه قومه على تقبيل التراب. فقال:

وما أحببتُ أرضكم ولكن *** أُقبّلُ إثرَ مَن وطئَ الترابا
لقد لاقيتُ من كلفي بلبُنى *** بلاءً ما أسيغ به الشرابا
إذ نادى المنادى باسم لبنى *** عَييتُ فما أطيق له جواباً[1]

وجزع قيسٌ على لُبنى جزعاً شديداً، وبلغ بهَ الندم أقصى مداه، وتحولت حياته إلى أسف لا ينتهي، وندم على ما جرى منه، ولم يجد أمامه سوى شعره يبثه أسفه وحسراته، وقال:

فواكبَدى على تسْريح لُبنى *** فكان فراق لبنى كالخداع[2]
تكنّفني الوشاةُ فأزعجوني *** فيا للناس للواشي المطاع[3]
فأصبحت الغداة ألوم نفسي *** على أمر وليس بمستطاع
كمغبونٍ بعضٌ على يديه *** تبّين غَبنّهُ بعد البياع[4]

---

[1]- العقد الفريد لابن عبد ربه.

[2]- فواكبدي: فوآسفي وشقائي، والكبد: التعب والشقاء، والتسريح: الطلاق.

[3]- تكنّفني: أحاطني من كل جانب، والوشاة: جمع واشٍ وهو المفسد والنمّام.

[4]- المغبون: الذي انتقض حقّه، وانطلى عليه الخداع. أخبار النساء لابن الجوزي ص ٦٩.

ثمَّ ساءت حاله، وتلف عقله، واشتد مرضه، وأشرف على حتفه، فقال أهله: لو زوجتموهــا إياه لييئس منها، وسلا عنها. فخطبها رجل من قريش وَحَكَمَ أباها في المهر. فزوجه إيــاه، فحملهــا معه إلى المدينة. فقال قيس:

وقالوا ترَاها فتنةً كنتَ قبلها *** بخير، فلا تنْدم عليها وطلِّق

فلَيْتَ، وبيتُ اللّهِ، أنّي عصيتُهُمْ *** فأنبت في رضوانها كل مونق[1]

وكلفتُ خوض النار سبعين حجّة *** وكنت على أثباج بحر مغرق[2]

كأني أرى الناس المقيمين بعدها *** نُقاعة ماء الحنظل المتغلّف[3]

وتكره عيني بعدها كلّ منظرٍ *** ويكره سمعي بعدها كلّ منطق

*قال: وخرج ابن أبي عتيق[4] يريد العمرة. فنزل بحي قيس بن ذريح فسألهم عنه، فقالــت: دلوني عليه. فدلوه فلما رآه قيس أقبل عليه ورحَّب به وقال: من أنت، حياك اللّه وعاقــاك؟ قــال: فانتسب له ابن عتيق وقال له: بيِّن حديثك لي تجدني معيناً لك على أمرك إن شاء اللّــه. فاســتحى قيس من ذلك وامتنع ساعة، ثم جعل يحدثه حتى بلغ إلى خبر القرشي. فقال: يا هذا، إني خرجــت من منزلي أريد العمرة التماساً للثواب. وقد عزمت، عندما سمعت، أن أترك ما خرجت من منزلي أريد العمرة التماساً للثواب. وقد عزمت، عندما سمعت، أن أترك ما خرجت إليــه فــأرجع معــك احتساباً للأجر؛ فبكر فامض معي أيها الرجل، واكتم شأنك، ولا يعلم أحد من أهلك. فجعل يعتــذر وهو يقول لهم: عاقني عن ذلك عائق. وأخفى قيساً في منزله أياماً ثم سأل عن منزل القرشي فــدل عليه. فبعث مولاة له عجوزاً إلى لبنى تخبرها بقيس وبما صار له من عشقها. فقالت: يعزّ علــيّ، وما حيلتي له، أطاع أباه وفارقني في غير جرم، وقد صرت الآن عند غيره ولا سبيل لــي علــى نفسي، وإن كبدي عليه لحراً[5]، وإنّ عيني لغيرا[6] مذ فارقته وأنها لما علمت بمكانه اشتد ولهها حتى أنكر زوجها شأنها فسألها عن خبرها وهل رأت شيئاً تنكره. فجعلت لا تجيب جواباً. وجعل يعتذر إليها، فقال لها: ما أراك إلا ذكرت قيساً. فقالت له هيهات وأين أنا من قيس، وأين قيس مني؟ ألــه عن هذا الحديث.

---

[1]- المونق: المعجب.

[2]- الأثياج: جمع يبج، وهو من البحر معظمه.

[3]- النقاعة: ما يُنقع في الماء ليحصل على شيء منه، والحنظل: نبات مرّ.

[4]- ابن أبي عتيق: هو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر.

[5]- حرّاء: يُقال كبدٌ حرّاء أي بها حرقة.

[6]- غبراء: أي بها مصيبة لا تكاد تذهب دموعها.

قال: وبلغت العجوز ابن أبي عتيق ما سمعت من لبنى فقال لها: عودي إليها فقولي لها: إن كنت على العهد فإنك ستصلين إلى ما تريدين. قالت: أي واللّه لا أزال على عهده مقيمة أو يفارق روحي جسدي؛ ولا أكافئه بسوء فعل كان منه إليّ.

قال: وأقبل ابن أبي عتيق ومعه جماعة من أشراف قريش وغيرهم حتى أتوا منزل القرشي زوج لبنى فأكبر مجيئهم. فقالوا: إنا جئناك في حاجة ولا سبيل إلى ردنا عنها. قال لهم: قضيت حاجتكم. قال ابن عتيق: كائنة ما كانت؟ قال له: نعم. قال: فإن حاجتنا أن تجعل أمر لبنى في يدي. قال القرشي: وهل رأيت أحداً سأل مثل هذا؟ قال: فهي حاجتنا، وقد جئت إليها. قال: فإني قد فعلت. قال: فيشهدون عليك أن أمرها في يدي؟ قال: نعم. قال ابن عتيق: فاشهدوا أنها طالق ثلاثاً. قال: قد أجزت[1].

وقد اختلف في آخر أمر قيس ولبنى؛ فذكر أكثر الرواة أنهما ماتا على افتراقهما، فمنهم منْ قال: إنه مات قبلها وبلغها ذلك فماتت أسفاً عليه. ومنهم منْ قال: بل ماتت قبله ومات بعدها أسفاً عليها.

وقيل: ماتت لُبنى، فخرج قيس ومعه جماعة من أهله فوقف على قبرها فقال:

ماتت لبنى فموتها موتي *** هل تنفعَنْ حسْرتي على الفَوتِ
وسوف أبكي بكاء مكتئبٍ *** قضى حياة وجداً على ميتِ

ثم أكبّ على القبر يبكي حتى أغمي عليه؛ فرفعه أهله إلى منزله وهو لا يعقل، فلم يزل عليلاً لا يُفيق ولا يجيب مكلماً ثلاثاً حتى مات فدُفن إلى جنبها[2].

صفوة وإياس

*وردت هذه القصة في كتاب "مصارع العشاق" على لسان الهيثم بن عدى، قال:

إنَّ مُرة بن مصعب القيسي كان له أخ يقال له فهر وكانا ينزلان الحيرة، وإن فهرا ارتحل بأهله وولده فنزل بأرض السراة وأقام مرة بالحيرة. وكانت عند مرة امرأة من بكر بن وائل و لبثت معه زمانا لم يرزق منها ولدا حتى يئس من ذلك ثم أتى في منامه ليلة فقيل له: إنك إن باشرت زوجتك من ليلتك هذه رأيت سرورا وغبطة، فانتبه فباشرها فحملت فلم يزل مسرورا إلى أن أتمت أيامها فولدت له غلاما فسماه إياسا لأنه كان آيسا منه، فنشأ الغلام حسنا، فلما ترعرع ضمه إليه وأشركه في أمره، وكان إذا سافر أخرجه معه لقلة صبره عنه فقال له أبوه يوما: يا بني

---

[1] أجزت: قبل طلبك. المرجع السابق ص ١٥٧-١٥٨.

[2]- العقد الفريد لابن عبد ربه.

قد كبرت سني وكنت أرجوك لمثل هذا اليوم، ولي إلى عمك حاجة فأحب أن تشخص فيها، فقال له إياس: نعم يا أبت لك ألف عين وكرامة فإذا شئت فأنا لحاجتك.

فأعلمه الحاجة فخرج متوجها حتى أتى عمه فعظم سروره به وسأله عن سبب قدومه وما الحاجة؟ فأخبره بها ووعده بقضائها، فأقام عند عمه أياما ينتظر فيها قضاء الحاجة. وكان لعمه بنت يقال لها صفوة ذات جمال و عقل فبينما هو ذات يوم جالسا بفناء دارهم إذ بدت له صفوة زائرة بعض أخواتها وهي تتهادى بين جوارها، فنظر إليها إياس نظرة أورثت قلبه حسرة وظلّ نهاره ساهرا وبات وقد اعتكرت عليه الأحزان ينتظر الصباح يرجو أن يكون فيه النجاح.

فلما بدا له الصباح خرج في طلبها ينتظر رجوعها فلم يلبث أن بدت له فلما نظرت إليه تنكرت ثم مضت فأسرعت فمر يسعى خلفها يأمل منها نظرة فلم يصل إليها وفاتته فانصرف إلى منزله وقد تضاعف عليه الحزن واشتد الوجد فلبث أياما وهو على حاله إلى أن أعقبه مرض أضناه وانحل جسمه وظل صريعا على الفراش. فلما طال به سقمه وتخوف على نفسه وبعث إلى عمة لينظر إليه ويوصيه بما يريد فلما رآه عمه ونظر إلى ما به سبقته العبرة إشفاقا عليه، فقال له إياس: كُف جعلت فداك يا عم ، فقد أقرعت قلبي، فكفّ عن بعض بكائه، فشكا إليه إياس ما يجد من العلة، فقال له: عز والله يا بن أخي ولن أدع حيلة أطلب الشفاء لك.

فانصرف إلى منزله وأرسل إلى مولاة له كانت ذات عقل فأوصاها به و بالتعاهد له و القيام عليه، فلما دخلت المولاة عليه فتأملته علمت أن الذي به عشق، فقعدت عند رأسه فأجرت ذكر صفوة لتستيقن ما عنده، فلما سمع ذكرها زفر زفرة، فقالت المرأة: والله ما زفر إلا من هوى داخل ولا أظنه إلا عاشقا. فأقبلت عليه كالممازحة له، فقالت له: حتى متى تبلي جسمك فو الله ما أظن الذي بك إلا هوى، فقال لها إياس: يا أمة لقد ظننت بي ظن سوء فكفي عن مزاحك، فقالت: إنك والله لن تبديه إلى أحد هو أكتم له من قلبي فلم تزل تعطيه المواثيق و تقسم عليه إلى أن قالت له: بحق صفوة، فقال لها: أقسمت عليَّ بحق عظيم ولو سألتني به روحي لدفعتها إليك. ثم قال: والله يا أمة ما عظم دائي إلا بالاسم الذي أقسمت عليَّ بحقه الله الله في كتمانه. وطلب وجه الحيلة فيه فقالت: أما إذا أطلعتني عليه فسأبلغ فيه رضاك إن شاء الله فسر بذلك وأرسل معها بالسلام إلى صفوة.

فلما دخلت عليها ابتدأتها صفوة بالمسألة عن الذي بلغها من مرضه وشدة حالته فاستبشرت المولاة بذلك، ثم قالت: يا صفوة ما حالة منْ يبيت الليل ساهرا محزونا يرعى النجوم ويتمنى الموت؟ فقالت صفوة: ما أظن هذا على ما ذكرت بباق وما أسرع منه الفراق، ثم أقبلت

على المولاة وقالت: إني أريد أن أسألك عن شيء فبحقي عليك إلا أوضحته، فقالـــت: وحقـــك إن عرفته لأكتمتك منه شيئا. قالت: فهل أرسلك إياس إلى أحد من أهل وده في حاجة؟ فقالت المولاة: والله لأصدقنك. والله ما جلّ داؤه وعظم بلاؤه إلا بك وما أرسلني بالسلام إلا إليك فأجيبيه إن شئت أو دعي. فقالت: لا شفاك الله ، والله لولا ما أوجب من حقك لأسأت إليك، وزجرتها. فخرجت من عندها كئيبة فأتته فأعلمته فازداد على ما كان عنده من مرضه وأنشأ يقول:

كتمت الهوى حتى إذا شب واستوت

قواه أشاع الدمع ما كنت أكتم

فلما رأيت الدمع قد أعلن الهوى

خلعت عذارى فيه، والخلع أسلم

فيا ويح نفسي! كيف صبري على الهوى

وقلبي وروحي عند من ليس يرحم

قال: ثم إن عمه دخل عليه ليعرف خبره، فقال: يا عم إني مخبرك بشيء لم أخبـــرك بـــه حتى برح الخفاء ولم أطق له محملا فأخبره الخبر، فزوَّجه وبرأ من علته.

عُقيلة وعمرو بن كعب

*قال الفرزدق: أبق[1] لرجل من بنى نهشل[2] يُقال له حصن، غلام فخرجت في طلبه أريـــد اليمامة[3] فلما صرت في ماء لبنى حنيفة[4] ارتفعت لي سحابة فرعدت وبرقت وأرخـــت عزاليهـــا[5]، فعدلت إلى بعض ديارهم و سألت القرا[6] فأجابوا، ودخلت الدار، وأنخت ناقتي، وجلست فإذا جارية

[1]- أبق : هرب .

[2]- بنو نهشل : قوم من آل الفرزدق .

[3]- اليمامة : بلاد في أوسط الجزيرة العربية .

[4]- بنو حنيفة: قبيلة عربية من بني يكر بن وائل.

[5]- أرخت عزاليها: أي أخذت تمطر بشدة.

[6]- القِرا : الضيافة.

كأنها طلعة قمر، فقالت: ممن الرجل؟ قلت: من بني حنظلة[1]. قالت: من أي حنظلة؟ قلت: من بني نهشل. قالت: فأنت من الذين يقول فيهم الفرزدق:

إنّ الذي سمك السماء بنى لنا   بيتا دعائمه أعز وأطول
بيتا زراره محتب لفنائه   ومجاشع وأبو الفوارس نهشل[2]

فقلت: نعم. فتبسمت، ثم قالت: فإن جريرا هدم قوله، حيث يقول:

أخزى الذي سمك السماء مجاشعا   وأحلَّ بيتك بالحضيض الأسفل[3]

قال: فأعجبني ما رأيت من جمالها وفصاحتها، ثم قالت لي: أين تؤم[4]؟ قلت: اليمامة. فتنفست نفسا وصل إليَّ حرّه، فقلت: أذات خدر[5] أم ذات بعل؟ فبكت. فقلت: ما أجبتني عما سألتك. قال: فلما فهمت قولي ولم تكن أولا فهمته من شدة استغراقها، فلما كان بعد ساعة أنشأت تقول:

يخيل لي، أبا عمرو بن كعب،   بأنك قد حملت على سرير
فإن يك هكذا، يا عمرو، إني   مبكرة عليك إلى القبور

ثم شهقت شهقة فماتت. فقلت لهم: من هذه؟ قالوا: عقيلة بنت الضحاك بن النعمان بن المنذر. قلت: فمن عمرو؟ قالوا: ابن عمها، خطبها ولم يدخل بها. فارتحلت من عندهم، فدخلت اليمامة، فسألت عن عمرو فإذا به قد دفن في ذلك الوقت من ذلك اليوم[6].

ريا وعتبة بن الحبّاب

*قال عبد الله بن معمر القيس:

"حججتُ سنة، ثم دخلت ذات ليلة مسجد المدينة لزيارة قبر رسول الله صلى عليه وسلم، فبينما أنا جالس بين القبر والمنبر، إذ سمعت أنينا فأصغيت إليه، فإذا هو يقول أبياتا من الشعر منها:

---

[1]- بنو حنظلة : قبيلة من معد كان لها شان في أيام العرب.
[2]- محتب بفنائه : مشتمل بثوبه ، والفناء : ساحة الدار.
[3]- سمك السماء :بناها وعلاها ، والحضيض : الدرك الأسفل.
[4]- تؤم : تقصد.
[5]- ذات خِدر : أي أنها مازالت عزباء ، والخِدر: الستر.
[6] - أخبار النساء لابن الجوزى ص١٢١-١٢٢ .

ما كنت أحسبني أهيم بها حتى بليت وكنت لا أدرى

ثم انقطع الصوت، فلم أدر من أين جاء؟ وإذا به قد عاد إلى البكاء والأنين قال: وكنت قد اقتربت منه، شابا قد خرق الدمع في خده خرقين، فسلمت عليه، فقال: اجلس.. من أنت؟

قلت: عبد الله بن معمر القيسي. قال: ألك حاجة؟ قلت نعم كنت جالسا في الروضة فما راعني إلا صوتك فبنفسي أفديك. فما الذي تجد؟

فقال: أنا عتبة بن الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري. غدوت يوما إلى مسجد الأحزاب فصليت فيه ثم اعتزلت غير بعيد فإذا أنا بنسوة قد أقبلن يتهادين مثل القطا وإذا في وسطهن جارية بديعة الجمال فوقفت عليَّ فقالت:

يا عتبة ما تقول في وصل من تطلب وصلك؟

ثم تركتني وذهبت فلم أسمع لها خبرا ولا قفوت لها أثرا، وأنا حيران أنتقل من مكان إلى آخر ثم صرخ وأكب مغشيا عليه ثم أفاق وأنشد:

ولست ألذُّ العيش حتى أراكم ولو كنت في الفردوس في جنة الخلد

فقلت: يا ابن أخي تُبْ إلى ربك واستغفره من ذنبك، فبين يديك هول المطلع، فقال: ما أنا بسالٍ حتى يؤوب القارظان.

ولم أزل معه حتى طلع الصبح، فقلت: قم بنا إلى مسجد الأحزاب فلعل الله أن يكشف كربتك.

فقال: أرجو ذلك إن شاء الله ببركة طاعتك. فذهبنا إلى مسجد الأحزاب، ثم جلسنا حتى صلينا الظهر وإذا بالنسوة قد أقبلن وليست الجارية فيهن فوقفن عليه وقلن له:

يا عتبة ما ظنك بطالبة وصلك وكاسفة بالك؟

قال: وما بالها؟ قلن: أخذها أبوها وارتحل بها إلى أرض السماوة.

فسألتهن عن الجارية فقلن: هي ريا ابنة الغطريف السلمي.

فقلت لعتبة: إني قد وردت بمال جزيل أريد به أهل الستر ووالله لأبذلنه أمامك حتى تبلغ رضاك وفوق الرضي، فقم بنا إلى مسجد الأنصار. فقمنا وسرنا حتى أشرفنا على ملأ منهم فسلمت فأحسنوا الرد، فقلت:

أيها الملأ ما تقولون في عتبة؟

قالوا: من سادات العرب.

قلت: فإنه قد رمى بداهية من الهوى، وما أريد منكم إلا المساعدة إلى السماوة.

فقالوا: سمعا وطاعة، فركبنا وركب القوم معنا حتى أشرفنا على منازل بنى سـليم فـأعلم الغطريف بنا فخرج مبادرا فاستقبلنا.

وقال: حييتم باكرام فقلنا: إنا لك أضياف.

فقال: نزلتم أكرم منزل، ثم نادى: يا معشر العبيد انزلوا القوم ففرشت الأنطاع و النمارق وذبحت الذبائح.

فقلنا لسنا بذائقي طعامك حتى تقضى حاجتنا.

فقال: وما حاجتكم؟ قلنا: نخطب عقيلتك الكريمة لعتبة بن الحباب بن المنذر.

فقال: إن التي تخطبونها أمرها إلى نفسها وأنا أدخل أخبرها، ثم دخل مغضبا على ابنته.

فقالت: يا أبت ما لي أرى الغضب على وجهك؟

فقال: قد ورد الأنصار يخطبونك منى.

فقالت: سادات كرام استغفر لهم النبي صلى الله عليه وسلم، فلمن الخطبة منهم؟

فقال: لعتبة بن الحباب.

قالت: والله لقد سمعت عن عقبة هذا: أنه يفي بما وعد و يدرك إذا قصد.

فقال: أقسمت لا أزوجنك به أبدا ولقد نما إليَّ بعض حديثك معه.

فقالت: ما كان ذلك ولكن إذا أقسمت فإن الأنصار لا يردون ردا قبيحا حسِّن لهم الرد.

فقال: بأي شيء؟

قالت: اغلظ لهم المهر فإنهم يرجعون ولا يجيبون.

فقال: ما أحسن ما قلت ثم خرج مبادرا.

فقال: إن فتاة الحي قد أجابت ولكن أريد لها مهرا مثلها، فمنْ القائم به؟

فقال: عبد الله بن معمر: أنا. فقل ما شئت.

فقال: ألف مثقال من الذهب و مائة ثوب من الأبراد وخمسة أكرشة عنبر.

فقال عبد الله: لك ذلك كله فهل أجبت؟

قال: أجل.

قال عبد الله: فأنفذت نفرا من الأنصار إلى المدينة فأتوا بجميع مـا طلـب، ثـم صـنعت الوليمة وأقمنا على ذلك أياما.

ثم قال: خذوا فتاتكم وانصرفوا مصاحبين ثم حملها في هودج وجهزها بثلاثين راحلة مـن المتاع والتحف، فودعناه وسرنا حتى إذا بقى بيننا وبين المدينة مرحلة واحدة خرجت علينـا خيـل

تريد الغارة أحسبها من سليم فحمل عليها "عتبة بن الخطاب" فقتل منهم رجالا وجرح آخــرين ثــم رجع وبه طعنة تفور دماء فسقط إلى الأرض وقضى نحبه فقلنا: واعتباه؛ فسمعتنا الجارية فألقــت نفسها من البعير وجعلت تصيح بحرقة وأنشدت:

تصبرت لا أني صبرت وإنما	أعلل نفسي أنها بك لاحقة
فلو انصفت روحي لكانت إلى الردى	أمامك من دون البرية سابقة
فما أحد بعدي وبعدك منصف	خليلا ولا نفسي لنفس موافقة

ثم شهقت وقضت نحبها فحفرنا لهما قبرا واحدا ودفنا هما فيه. ثم رجعت إلى المدينة فأقمت سبع سنين ثم ذهبت إلى الحجاز، ووردت المدينة فقلت: والله لآتين قبر "عتبة" أزوره فأتيت القبر فإذا عليه شجرة عليها عصائب حمر وصفر. فقلت لأرباب المنزل: ما يُقال لهذه الشجرة؟ قالوا: "شجرة العروسين"!

يوم الدوحة

*روى أبو الفرج الأصفهاني في كتابه "الأغاني"، أن حماداً الراوية قال: أتيت مكة فجلست في حلقة فيها عمر بن أبى ربيعة المخزومي فتذاكرنا العذريين – أي بنو عذرة – فقال عمر بن أبى ربيعة: " كأن لي صديق من بنى عذرة يُقال له "الجعد بن مهجع"، وكان يلقى من الصبابة[1] ما لا يحتمله إلا عذري علي أنه كان شابا لا عاهر الخلوة[2] ولا سريع السلوة[3]، وكان يوافي في موسم الحج في ككل سنة فإذا راث –تأخر– عن وقته ترجمت عنه الأخبار وتوكفت له السفار حتى يقدم، فإذا قدم تحدثنا حديث صببين عاشقين محزونين.

وقد ارتاث – تأخر – علي ذات عام خبره حتى قدم وافد عذرة فأتيت القوم أنشد صاحبي فإذا غلام يتنفس الصعداء ثم قال: عن أبى السهر تسأل؟ قلت: عنه نشدت وإياه أردت.

قال: هيهات هيهات، لقد أصبح والله لا مؤيسا فيُمهل ولا مرجوا فيعلل فهو – والله – كما يقول الشاعر:

لعمرك ما حبي لأسماء تاركي أعيش ولا أقضى به فأموت

قلت: وما الذي به رحمك الله؟ قال: مثل الذي بك من التهالك في الضلال وجر أذيال الخيبة والخسار كأنما لم تسمعا بجنة أو بنار.

قلت: منْ أنت يا ابن أخي؟

قال: أنا أخوه.

قلت: أما والله ما يمنعك أن تركب طريق أخيك وتسلك مسلكه... ثم صرفت وجه ناقتي. فلما حججت وقفت في الموضع الذي كنا أنا وهو نقف فيه من عرفات فإذا إنسان قد أقبل وقد تغير لونه وساءت هيئته فما عرفته إلا بناقته فأقبل حتى خالف بين أعناقهما فاعتنقنى وجعل يبكى.

فقلت: ما الذي دهاك؟

فقال: برح العذل وطول المطل، ثم أنشأ يقول:

لئن كانت عدية ذات لب لقد علمت بأن الحب داء

ألم تر ويحها تغبير جسمي وأنى لا يفارقني البكاء

إذا العذري مات بحتف أنف فذاك العبد يبكيه الرثاء

[1]- الصبابة: الحب والوجد.

[2]- عاهر الخلوة : يريد أنه ليس بفاخر.

[3]- سريع السلوة : ينسى بسرعة .

فقلت: يا أبا المهر، إنها ساعة تضرب إليها أكباد الإبل من شرق الأرض وغربها فلو دعوت كنت قمنا أن تظفر بحاجتك. فدعا، حتى إذا دنت الشمس للغروب وهمّ الناس بالإفاضة همْهَمَ بشيء فأصغيت له فسمعته يقول:

يارب كل غدوة وروحة   من محرم يشكو الضحى و اللوحة[1]

أنت حسيب الخلق يوم الدوحة[2]

قلت: وما يوم الدوحة؟

قال: والله لأخبرنك ولو لم تسألني.

ثم تيممنا مزدلفة فقال:

"إني رجل ذو مال ونعم وشاء وإني خشيت علي إبلي التلف ، وأصاب الغيث أرض كلب فانتجعت أخوالي منهم فأوسعوا لي عن صدر المجلس و سقوني جمة الماء، وكنت معهم في خير أحوال ثم إني عزمت علي مرافقة إبلي بماء لهم يُقال له "الحردان"، فركبت فرسي وعلقت شرابا معي كان أهداه إلي بعض الكلبين. ثم انطلقت حتى إذا كنت بين الحي ومرعى النعم وبدت لي دوحة عظيمة فنزلت عن فرسي وشددته بغصن من أغصانها وجلست في ظلها. فبينما أنا كذلك إذ سطع غبار من ناحية الحي ثم رفعت لي شخوص ثلاثة ثم تبينت فإذا فارس يطارد مسحلا[3] وأتانا، فلما قرب منى إذا عليه درع صفراء وعمامة خز سوداء وإذا فروع شعرة تضرب خصريه. فقلت في نفسي: غلام حديث عهد بعرس أعجلته لذة الصيد فنسى ثوبه أخذ ثوب امرأته. فما لبث أن لحق المسحل فصرعه ثم ثنى طعنه للأتان وأقبل وهو يقول:

نطعنهم سلكي ومخلوجة   كرّك لامين علي نابل[4]

فقلت له: لقد تعبت وأتعبت فرسك، فلو نزلت فثنى رجله فنزل فشدَّ فرسه بغصن من أغصان الشجرة وألقى رمحه وأقبل حتى جلس وجعل يحدثني حديثا ذكرت به قول أبى ذؤيب:

وإن حديثا منك لو تبذلينه   جنى النحل في ألبان عوز مطافل[5]

---

[1]- الغدوة : المسير صباحا . والروحة : الإياب ليلا .

[2]- الدوحة : يقصد يوم القيامة .

[3]- المسحل: الحمار الوحشي .

[4]- النابل : رامى النبال .

[5]- الحديثان النتاج .

ثم رفع الغلام عقيرته يتغنى.. ثم قال: ما هذا الذي تعلقه؟

قلت: شراب أهداه لي بعض أهلك هل لك فيه؟

قال: أنت وذاك. فأتيته به فشرب وجعلت أنظر إلي عينيه كأنهما مهاة قد أضلت ولدا وذعرها قانص، فرأى نظري فرفع عقيرته يتغنى:

إن العيون التي في طرفها حور   قتلننا ثم لم يحيين قتلانا[١]

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به   وهن أضعف خلق الله إنسانا[٢]

فقلت له: من أين لك هذا الشعر؟

فقال: وقع رجل منا نحو اليمامة، فهو الذي أنشدنيه.

ثم قمت لأصلح شيئا من أمر فرسي فرجعت وقد حسر الغلام العمامة عن رأسه فإذا هو أحسن الناس وجها. فقلت: سبحانك اللهم.. ما أعظم قدرتك وأحسن صنعتك.

قال: وكيف قلت ذلك؟

قلت: ما راعني من نور وجهك وبهرني من جمالك. قال: وما الذي يروعك من حبيس التراب وأكيل الدواب، ثم لا يدرى أينعم بعد ذلك أم يبتئس؟

قلت: بل لا يصنع الله بك إلا خيرا إن شاء الله.

ثم قام الغلام إلي فرسه فلما أقبل برقت لي بارقة من الدرع فإذا ثدي كأنه حق[٣].

فقلت: نشدتك الله.. أنت رجل أو امرأة؟

فقال: إني والله امرأة تكره العهر وتحب الغزل.

قلت: وأنا والله لكذلك. فجلست تحدثني ما أفقد من أنسها حتى مالت على الدوحة. فاستحسنت والله الغدر يا ابن ربيعة وزيّن في عيني ولكن الله عصمني فجلست منها بعيدا. فما لبثت أن انتبهت مذعورة فلاثت عمامتها وأخذت رمحها وجالت في متن فرسها.

وقالت: جزاك الله عن الصحبة خيرا.

قلت: ألا تزوديني منك زادا؟ فناولتني يدها فقبلتها فشممت منها والله المسك المفتوت ثم قلت: أين الموعد؟ قالت: إن لي أخوة شرسا[٤] وأبا غيورا. ولأن أسرك أحب إليّ من أن أضرك ثم

---

[١]- الحور : شدة بياض العين وشدة سوادها، والطرف : العين .

[٢]- اللب : العقل .

[٣]- الحُق : وعاء صغير يوضع فيه الطيب .

[٤]- الشرس : الشجعان وأولوا البأس .

مضت. فكأن والله آخر العهد منها إلي يومي هذا فهي و الله التي بلغتني هذا المبلغ.. وبكى.

فقال ابن أبى ربيعة: فدخلتني له رقة وقلت له: لو لم أبلغ حاجتك بما لي لسعيت في ذلك حتى أقدر عليه. فلما انقضى موسم الحج شددت علي ناقتي وشد علي ناقته وحملت غلاما على بعير، وجعلت عليه قبة حمراء كانت لأبى وأخذت معي ألف دينار ورداء خز. ثم خرجنا حتى أتينا بلاد كلب فإذا الشيخ أبو الجارية في نادى قومه وإذا هو سيد الحي وإذا الناس حوله فوقفت علي القوم و سلمت فرد الشيخ السلام ثم قال: من الرجل؟

قلت: عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومي.

قال الشيخ: المعروف غير المنكر فما الذي جاء بك؟

قلت: جئت خاطبا.

قال: الكُفء و الرغبة.

قلت: إني لم آت ذلك لنفسي عن غير زهادة فيك ولا جهالة بشرفك ولكنى أتيت في حاجة ابن أختكم هذا العذري وهاهو ذاك.

فقال: إنه والله الكفء الحسب رفيع المنصب، غير أن بناتي لا يقعن إلا في هذا الحي من قريش. فعرف الجذع في وجهي.

فقال: أما إني لصانع بك ما لم أصنع بغيرك.. أخيرها.. فهي وما اختارت.

فقلت: و الله ما أنصفتني إذ تختار لغيري ووليت الخيار لي غيرك.

فأومأ إليَّ صاحبي أن دعه يخيرها. فأرسل لها بالخيار وقال: رأيك.

فقالت: ما كنت لأستبد برأي دون رأى القرشي وما اختار.

قال الشيخ: فقد صيرت إليك الأمر. قال أبن أبى ربيعة: فحمدت الله جل ذكره وصليت علي محمد صلى الله عليه وسلم، وقلت: قد زوجتها الجعد بن مهجع وأصدقتها هذه الألف دينار وجعل تكرمتها العبد و البعير و القبة و كسوت الشيخ رداء الخز. وسألته أن يبنى من ليلته فأرسل الشيخ إلي أمها، فأبت، وقالت: أتخرج ابنتي كما تخرج الأمة؟

فقال الشيخ: فعجلني في جهازها، فما برحت حتى ضربت الخيمة " القبة " في وسط الحريم وأهديت إليه ليلا وبت أنا عند الشيخ. فلما أصبحت أتيت القبة فصحت بصاحبي فخرج إليّ وقد بدا السرور في وجهه، فسألته: كيف كنت بعدي؟ وكيف هي بعدك؟

فقال لي: لقد و الله أبدت لي كثيرا مما كانت تخفيه عنى يوم لقينها تحت الدوحة.

فقلت له: أقم علي أهلك بارك الله لك فيهم ثم انطلقت وأنا أقول:

كفيت أخي العذري ما كان نابه	وإني لأعباء النوائب حمّال
أما استحسنت منى المكارم و العلا	إذا صرحت أني أقول أفعل[1]

أسماء و المرقش الأكبر

*المرقش الأكبر وابنة عمه أسماء من قبيلة بكر بن وائل. أحبّ المـرقش أسـماء وهـي صغيرة وأحبته ونما الحب في قلبيهما، ثم خطبها إلي أبيها، فأخذ يماطله ويعـده فيهـا المواعيـد، ولعله لم يكن يراه كفؤا لابنته إذ يذكر الرواة أنه قال له: لا أزوجك حتى تعرف بالبـأس وتـزور الملوك. وكأن أبوها عوف بن مالك من فرسان بكر المعدودين وكذلك كان أخوه عمرو بن مالـك، وهو الذي أسر مهلهل بن ربيعة أخا كليب فظل في أسره حتى مات.

وانطلق المرقش يبنى مستقبله ويرفع من شأنه حتى يكون جديرا بابنـة عمـه المحبوبـة، فاتصل ببعض الملوك يمدحهم وينال جوائزهم ثم عاد إلي وطنه بعد سنين ليفاجأ بنبأ أذهله وجعـل كل آماله تتهاوى في يأس قاتل وحزن مميت. لقد كان في انتظاره نبأ موت صاحبته التـي تغـرَّب عن وطنه تلك السنين من أجلها ، ودلوه علي قبر قالوا له أنه قبرها وارتبطت أيامـه بهـذا القبـر يندب عنده حظه ويبكى آماله ويذوب كمدا وحزنا فوق الحجارة الـصامتة. ثـم تكـون المفاجـأة المذهلة حقا، لقد ترامى إلي سمعه ذات مرة أن أسماء لم تمت، وإنما تزوجها أحـد سـادة مـراد الأثرياء في أثناء غيبته بعد أن أطمع أباها في ماله الكثير، وأن نبا موتها مفتعـل افتعلـه أخوتـه ليخفوا عنه الحقيقة المرة ويتفادوا ما تجره وراءها من أحداث.

وينطلق المرقش إلي ديار مراد في صحبة عبدين له ولكن داء عضالا يحل به في الطريق وييأس العبدان ويقطعا الأمل من شفائه ويظنان به الموت فيخلفانه في كهف بأرض مراد ويعـودان إلي أهله ليعلنا لهم أنه قد مات. ثم يتبين أخ له الحقيقة، لقد سجل المرقش قصته مع العبـدين فـي أبيات كتبها علي رحله فقرأها أخوه الذي ينطلق نحو أرض مراد باحثا عنه بعد أن يقتل العبـدين. وهناك عند الكهف يعلم أنه قد حمل إلي أسماء. لقد وردت علي الكهف غنم عرف المـرقش مـن راعيها أنها غنم المرادي زوج أسماء فاحتال علي الراعي حتى طرح خاتمه في اللبن الذي تحمله إلي أسماء جاريتها كل مساء.... نفس الأسلوب الذي أتبعه عروة بعد ذلك حين نزل ضـيفا علـي زوج عفراء بالشام، وتعرف أسماء خاتم حبيبها القديم وتعرف من الراعي موضعه بالكهف وأنـه تركه يعاني سكرات الموت فتسرع هي وزوجها إليه ليعودا به إلي بيتهما.

وفي أرض مراد حيث استقرت حبيبته يلفظ المرقش أنفاسه الأخيرة بعد أن يودع الحياة بأبيـات

[1]- وانظر أيضا هذه القصة في " مصارع العشاق " ص ٥٠ .

من الشعر يصور فيها حيرته وآماله الضائعة وماضيه الجميل الذي قطعت عهوده ومواثيقه إلي الأبد[1].

حُبيشة وعبد الله بن علقمة

*أحبّ عبد الله بن علقمة ابنة عمه حُبيشة وكلاهما من بنى عامر بن عبد مناة. ربط الحبّ بين قلبيهما وهما صغيران فقد خرجت به أمه وهو غلام لتزور أم حبيشة وكانت جارة لها وهناك رآها فأعجبته وانطلقت سهام الحب لتجمع بين القلبين في قصة غرام عنيف لم تفلح جميع المحاولات التي قام بها أهله وأهلها في وضع حد له. لقد هام كل منهما بصاحبه وأخذ يقول فيه الشعر، وكان كلاهما شاعرا، وحال أهلها بينهما ولكن هذا لم يزدهما إلا غراما فأخذا يتبادلان الرسائل و الأشعار. ثم تتعرض قبيلتهما لغزوة قام بها خالد بن الوليد رضى الله عنه بأمر النبي صلي الله عليه وسلم بعد فتح مكة. ويقع ابن علقمة أسيرا في أيدي المسلمين وتقع حبيشة كذلك و يساق هو لتُضرب عنقه فيطلب أن يراها قبل أن يلقى مصرعه ويتناول يدها في يده وهو ينشدها شعره حتى إذا ما ضُربت عنقه وضعت حبيشة رأسه في حِجرِها وجعلت ترشفه وتبكيه بأبيات لها ظلت ترددها حتى لفظت أنفاسها الأخيرة[2].

رملة وعمر بن أبى ربيعة

*روى أبو الفرج الأصفهاني في كتابه "الأغاني"، قال: قال عمر بن أبى ربيعة: بينا أنا خارج محرماً إذا أتتني جارية كأنها دمية من صفاء اللجين في ثوب قصب كقضيب علي كثيب فسلمت عليّ وقالت: أنت عمر بن أبى ربيعة فتى قريش وشاعرها؟ قلت: أنا والله ذاك. قلت: هل لك أن أريك وجها؟ قلت: ومنْ لي بذلك؟ قالت: أنا والله لك بذلك علي شريطة. قلت: وما هي؟ قالت: أعصبك وأربط عينيك وأقودك ليلا. قلت: لك ذلك. قال: فاستخرجت معجرا من قصب عجرتني به وقادتني حتى أتت بي مضربا، فلما توسطته فتحت العجارة عن عيني فإذا أنا بمضرب ديباج أبيض مزرر بحمرة مفروش بفرش كوني وفي المضرب ستارة مضروبة من الديباج الحمر عليها تماثيل ذهب ومن ورائها وجه لم تحسب أن الشمس وقعت علي مثله حسنا وجمالا. فقامت كالخجلة وقعدت قبالي وسلمت عليّ. فخيل إلي أن الشمس تطلع من جبينها وتغرب من شقائق خدها. قالت: أنت عمر بن أبى ربيعة فتى قريش وشاعرها؟ قلت: أنا ذاك يا منتهى لجمال. قالت: أنت القائل:

بينما ينعتني أبصرنني   دون قيد الميل يعدو بي الأغر

---

[1] – الحب المثالي عند العرب ص ٦٢ – ٦٣ .

[2] – المرجع السابق ص ٦٥.

قالت الكبرى: أما تعرفن ذا　　قالت الوسطى: بلى هذا عمر

قالت الصغرى – وقد تيمتها –　　قد عرفناه وهل يخفي القمر

قلت: أنا والله قائلها يا سيدتي. قالت: ومن هؤلاء؟ قلت: والله يا سيدتي ما هو عن قصد مني ولا في جارية بعينها ولكني رجل شاعر أحب الغزل وأقول في النساء. قالت: يا عدو الله يا فاضح الحرائر أنت قد فشا شعرك في الحجاز وأنشده الخليفة والأمراء ولم يكن في جارية بعينها، يا جواري أخرجنه فخرجت الوصائف، فأخرجنني ودفعنني إلي الجارية فعجرتني وقادتني إلي مضربي. فبت ليلة كانت أطول من سنة، فلما أصبحت بقيت هائما لا أعقل ما أصنع فما زلت أرقب الوقت.

فلما كان وقت المساء جاءتني الجارية فسلّمت عليّ وقالت: يا عمر هل رأيت ذلك الوجه؟ قلت: أي والله. قالت: فتحب أن أريكه ثانية؟ قلت: إذا تكرمت فتكونين أعظم الناس عليّ منة. فقالت:علي الشريطة، فاستخرجت المعجر فعجرتني، وقادتني فلما توسطت المضرب فتحت العصابة عن وجهي فإذا أنا بمضرب ديباج أحمر مدنر ببياض مفروش بفرش أرمني فقعدت علي نمرقة من تلك النمارق فإذا أنا بالشمس الضاحية قد أقبلت من وراء ستر تتمايل من غير سُكر فقعدت كالخجلة، فسلمت عليّ. قالت: أنت عمر بن أبى ربيعة فتى قريش و شاعرها؟ قلت: أنا ذاك. قالت: أنت القائل:

وناهدة الثديين قلت لها اتكي　　علي الرمل في ديمومة لم توسد

فقالت: علي اسم الله أمرك طاعة　　وإن كنت قد كلفت ما لم أعود

فما زلت في ليل طويل ملثما　　لذيذ رضاب المسك كالمتشهد

فلما دنا الإصباح قالت فضحتني　　فقم غير مطرود وأن شئت فازدد

فلما ازددت منها واتشحت بمرطها　　وقلت لعيني: اسفحا الدمع من غد

فقامت تعفى بالرداء مكانها　　وتطلب شذرا من جمال مبدد

قلت: أنا قائلها. قالت فمنْ الناهدة الثديين؟ قلت: يا سيدتي، قد سبق في الليلة الأولي. والله ما هو عن قصد مني ولا في جارية بعينها، ولكني رجل شاعر أحب الغزل وأقول في النساء. قالت: يا عدو الله أنت قد فشا شعرك بالحجاز ورواه الخليفة وتزعم أنه لم يكن في جارية بعينها، ياجواري ادفعنه فوثبت الجواري فأخرجنني ودفعنني إلي الجارية فعجرتني وقادتني إلي مضربي، فبت في ليلة كانت أطول من الليلة الأولي. فلما أصبحت أمرت بخلوق فضُرب لي وبقيت هائما. فلما كان وقت المساء جاءتني الجارية فسلمت علي وقالت: يا عمر هل رأيت ذلك الوجه؟ قلت: أي والله،

قالت: فتحب أن أريكه الثالثة؟ قلت: إذا تكونين أعظم الناس علي منة. قالت: علي الشريطة. قلت: نعم. فاستخرجت المعجر وعجرتني به وقادتني حتى أتت بي المضرب فلما توسطته فتحت العصابة عن عيني فإذا أنا في مضرب ديباج أخضر مدنر بحمرة مفروش بخز أحمر، وإذا أنا بالشمس الضاحية قد أقبلت من وراء الستر كحور الجنان فسلمت عليّ. وقالت: أنت عمر بن أبي ربيعة فتي قريش وشاعرها؟ قلت: أنا ذاك. قالت: أنت القائل:

نعب الغراب ببين ذات الدملج	ليت الغراب ببينها لم يشجج
مازلت أتبعهم وأتبع عيسهم	حتى دفعت إلي ربيبة هودج
قالت: وعيش أخي وحرمة والدي	لأنبهن الحي أن لم تخرج
فلثمت فاها أخذا بقرونها	شرب النزيف ببرد ماء الحشرج
فتناولت كفي لتعرف منها	بمخضب الأطراف غير مشنج

قلت: أنا قائلها. قالت: يا عدو الله أنت الذي فضحتها ونفسك وجهي من وجهك حرام إن عدت إلي، يا جواري أخرجنه فوثب إلي المصائف وأخرجنني ودفعنني إلي الجارية فعجرتني وقادتني. وقد كنت عند خروجي من مضربي ضربت يدي بالخلوق وأسدلت عليها ردائي فلما صرت إلي باب مضربها أخرجت يدي ووضعتها علي جانب المضرب وضعا بينا.

فلما أصبحت صحت بغلماني وعبيدا ولي ألف عبد: منْ أتاني بخبر المضرب الذي ضرب فيه بكذا وكذا فهو حر لوجه الله، فلما كان في وقت المساء أتتني وليدة سوداء فقالت: قد عرفت المضرب وهو لرملة أخت عبد الملك بن مروان. فأعتقتها وأمرت لها بمائتي دينار. وأمرت بمضربي فقلع وضرب بحذاء مضربها. وكتبت بالخبر إلي عبد الملك ابن مروان. فكتب إليها بالرحيل. فركبت هودجها وركبت فرسي فزاحمتها في بعض الطريق فأشرفت عليّ من هودجها، فقالت: إليك عني أيها الرجل. قلت: خاتم أو قميص أذكرك به. فقالت لبعض جواريها: ألقي إليه قميصا من قمصي. فأخذته وأنا أقول:

فلا و أبيك ما صوت الغواني	ولا شرب التي هي كالفصوص
أردت برحلتي وأريد حظا	ولا أكل الدجاج ولا الخبيص[1]
قميص ما يفارقني حياتي	أنيس في المقام وفي الشخوص

وجعلت أنزل بنزولها وأركب بركوبها حتى كنا من الشام علي ثلاث مراحل فاستقبلها عبد الملك في خاصته فدخل إليها ثم قال: يا رملة. ألم أنهك أن تطوفي بالبيت إلا ليلا يحفك الجواري

[1]- الخبيص:: نوع من الحلوى.

ويحف الجواري الخدم ويحف الخدم الوكلاء لئلا يراك عمر بن أبى ربيعة. فقالـــت: والله وحيـــاة أمير المؤمنين ما رآني ساعة قط. فخرج من عندها فبصر بمضربي فقال: لمن المـــضرب؟ قيـــل: لعمر بن أبى ربيعة. قال: عليّ به. فأتيته بلا رداء ولا حذاء، فدخلت عليه وسلمت عليه. فقال: يـــا عمر ما حملك علي الخروج من الحجاز من غير إذني؟ قلت: شوقا إليك يا أمير المؤمنين وصبابة إلي رؤيتك فأطرق مليا ينكت في الأرض بيده. ثم رفع رأسه، فقال: يا عمر هل لك فـــي واحـــدة؟ قلت: وما هي يا أمير المؤمنين؟ قال: رملة أزوجكها. قلت: يا أمير المـــؤمنين! وإن هـــذا لكـــائن؟ قال: إي ورب السماء. ثم قال: قد زوجتكما فادخل إليها من غير أن تعلم. فدخلت عليهـــا فقالـــت: من أنت هبلتك أمك؟ قلت: أنا المعذب في الثلاث فارتحلت وأنا عديلها فأنشأت أقول:

لعمري لقد نلت الذي أرتجي وأصبحت لا أخشى الذي كنت أحذر
فليس كمثلي اليوم كسري وهرمز ولا الملك النعمان مثلي وقيصر

فلم أزل معها بأحسن عيشة وغبطة.

خلخال رملة

*قال أبو عبيدة: حجَّ عبد الملك بن مروان ومعه خالد بن يزيد بن معاوية، وكان خالـــد هـــذا من رجالات قريش المعدودين وكان عظيم القدر عند عبد الملك، فبينما هو يطوف بالبيت إذ بصر برملة بنت الزبير بن العوام فعشقها عشقا شديدا ووقعت بقلبه وقوعا متمكنا، فلما أراد عبد الملـــك القفول همّ خالد بالتخلف عنه فوقع بقلب عبد الملك تهمة فبعث إليه فسأله عن أمره، فقال: يا أميـــر المؤمنين رملة بنت الزبير رأيتها تطوف بالبيت فأذهلت عقلي والله ما أبديتُ إليك ما بي حتى عيل صبري. ولقد عرضت النوم علي عيني فلم تقبله والسلوَّ علي قلبي فامتنع منه. فأطال عبد الملـــك التعجب من ذلك وقال: ما كنت أقول إن الهوى يستأسر مثلك، قال: فإني لأشد تعجبا من تعجبـــك مني. ولقد كنت أقول: إن الهوى لا يتمكن إلا من صنفين من الناس: الشعراء و الأعـــراب. أمـــا الشعراء فإنهم ألزموا قلوبهم الفكر في النساء ووصفهن والتغزل فمال طبعهم إلي النساء فـــضعفت قلوبهم عن دفع الهوى فاستسلموا إليه منقادين. وأما الأعراب فإن أحدهم يخلو بامرأته فـــلا يكـــون الغالب عليه غير حبه لها ولا يشغله عنه شيء، فضعفوا عن دفع الهوى فتمكن منهم. فمـــا رأيـــت نظرة حالت بيني وبين الحزم وحثتْ عندي ركوب الإثم، مثل نظرتي هذه. فتبسم عبد الملك فقـــال: أفكل هذا قد بلغ بك؟ فقال: والله ما عرتني[1] هذه البلية قبل وقتي هذا. فوجَّه عبد الملك إلي الزبيـــر يخطب رملة علي خالد فذكروا لها ذلك فقالت: لا والله أو يطلق نساءه، فطلق امرأتين كانتا عنده ،

[1]- عرتني البلية : غشيتني.

وظعن بها إلي الشام وكان يقول:

أليس يزيد الشوق في كل ليلة ... وفي كل يوم من حبيبتنا قرْبا

خليلي ما من ساعة تذكر أنها ... من الدهر إلا فرّجت عنى الكربا

أحب بنى العوام طرا لحبها ... ومن اجلها أحببتُ أخوالها كلْبا

تجول خلاخيلُ النساء ولا أرى ... لرملة خلخالا يجول ولا قُلْبا[1]

أم البنين ووضاح اليمن

*ذكر ابن عبد ربه في "العقد الفريد"، أنَّ أمّ البنين استأذنت زوجها الوليد بن عبد الملك في الحج فأذن لها وكتب الوليد يتوعد الشعراء جميعا أن يذكرها أحد منهم، أو يذكر ممن معها، فقدمت مكة وتراءت للناس وتصدّى لها أهل الغزل والشعراء، ووقعت عينها علي وضاح[2] اليمن فهويته. وأنفذت إلي كُثير عزة وإلي وضاح اليمن أن شببا بي. فكره ذلك وشبّب بجاريتها غاضرة وذلك في قوله:

شجا أظعان غاضرة الغوادي ... بغير مشورة عرضا فؤادي

وأما وضاح اليمن فإنه صرّح فبلغ ذلك الوليد فقتله، وقيل: إنه مدح الوليد فوعدته أم البنين أن تساعده وتعينه علي رفده، فقدم علي الوليد وأنشده:

صبا قلبي ومال إليك ميلا ... وارقني خيالك يا أثيلا

يمانية تلم بنا فتُبدي ... دقيق محاسن وتكن غيلا

وهي أبيات مشهورة فأحسن رفده. ثم نمى إليه أنه يشبب بأم البنين فجفاه وحجبه ودبر في قتله واختلسه ودفنه في داره.

وقال ابن خلكان في "وفيات الأعيان"، أن أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان وهي زوجة الخليفة الوليد ابن عبد الملك، كانت تهوى وضاح اليمن الشاعر، وكان جميلا وكانت ترسل إليه فيدخل إليها ويقيم عندها وإذا خافت وارته في صندوق عندها وأقفلت عليه. فدخل الخادم إليها

---

[1]- القلب بالضم : سوار المرأة . روضة المحبين ص ٢٠٦.

[2]- وضاح اليمن : هو عبد الرحمن بن إسماعيل من آل خولان من حمير : شاعر ، رقيق الغزل ، عجيب النسيب ، كان جميل الطلعة يتقنع في المواسم ٠ له أخبار مع عشيقة له اسمها (روضة) من أهل اليمن ٠ قدم مكة حاجا في خلافة الوليد بن عبد الملك فرأى (أم البنين) بنت عبد العزيز بن مروان ، زوجة الوليد ، فتغزل بها ، فقتله الوليد سنة ٩٠ هـ وهو صاحب الأبيات أبيات التي منها ٠

قالت : ألا لا تلجن دارنا ... إن أبانا رجل غائر

ومن المؤرخين منْ يسمه عبد الله بن إسماعيل.

مفاجأة فرأى وضاحا عندها فأدخلته الصندوق. فطلب منها الخادم حجرا نفيسا كان يعرفه عنـــدها فمنعته إياه بخلا به. فمضى الخادم وأخبر الوليد بالحال فقال له: كذبت ثم جاء الوليد إلي أم البنـــين وهي جالسة تمشط رأسها. وكان الخادم قد وصف له الصندوق فجلس الوليد فوقه ثم قال:

يا أم البنين هبي لي صندوقا من هذه الصناديق.

فقالت: كلها بحكمك يا أمير المؤمنين.

فقال: إنما أريد واحدا منها.

فقالت: خذ أيها شئت.

فقال: هذا الصندوق الذي تحتي.

فقالت: غيره أحب إليك منه، فإن لي فيه أشياء أحتاج إليها.

فقال: ما أريد سواه.

فقالت: خذه.

فدعا بالخدم وأمرهم بحمله حتى انتهي إلي مكان فوضعه فيه ثم دعـــا عبيـــدا لـــه عجمـــا وأمرهم بحفر بئر في المكان، فحفرت إلي الماء. ثم دعا بالصندوق فوضعه علي شفير البئر[١] ودنا منه، وقال:

يا صاحب الصندوق إنه بلغنا شيء إن كان حقا فقد دفناك ودفنا ذكرك إلي آخـــر الـــدهر، وإن كان باطلا فإنما دفنا الخشب.

ثم قذف به في البئر وهيل عليه التراب وسويت الأرض، فما رؤى الوضاح بعد ذلك اليوم ولا أبصرت أم البنين في وجه الوليد غضبا حتى فرق الموت بينهما.

هند وابن العجلان

*قال الهيثم بن عدى[٢] كان عبد الله بن العجلان[٣] النهدي سيدا في قومه وابـــن ســـيد مـــن ساداتهم، وكان أبوه أكثر بنى نهد مالا، وكانت هند امرأة عبد الله بن العجلان التي يـــذكرها فـــي شعره امرأة من قومه بنى نهد، وكانت أحبّ الناس إليه وأحظاهم عنده، فمكثت معه سنين ســـبعا أو ثمانيا لم تلد فقال له أبوه: إنه لا ولد لي غيرك ولا ولد لك وهذه المـــرأة عـــاقر فطلقهـــا وتـــزوج غيرها، فأبى ذلك عليه، فآلي ألاّ يكلمه أبدا حتى يطلقها، فأقام علي أمره، ثم عمد إليه يومـــا وقـــد

[١] – شفير البئر : حافته .

[٢]– الهيثم بن عدى : مؤرخ وراوية معروف.

[٣]– عبد الله بن العجلان : هو عبد الله بن العجلان النهدي شاعر جاهلي .

شرب الخمر حتى سكر وهو جالس مع هند، فأرسل إليه أن صر إليّ فقالت له هند: لا تمض إليه فو الله ما يريدك لخير وإنما يريدك لأنه بلغه أنك سكران فطمع فيك أن يقسم عليك فتطلقني فنم مكانك ولا تمض إليه، فأبى وعصاها فتعلقت بثوبه فضربها بمسواك فأرسلته[1]، وكان في يدها زعفران[2]، فأثَّر في ثوبه مكان يدها ومضى إلي أبيه، فعادوه في أمرها وأنَّ وضعَّفه، وجمع عليه مشيخة الحي وفتياتهم فتناولوه بألسنتهم وعيَّروه بشغفه بها، وضعف حزمه، ولم يزالوا به حتى طلقها، فلما أصبح خبر بذلك، وقد علمت به هند فاحتجبت عنه، وعادت إلي أبيها فأسف عليها أسفا شديدا، فلما رجعت إلي أبيها خطبها رجل من بنى نمير فزوجها أبوها منه فبنى بها عندهم وأخرجها إلي بلده، فلم يزل عبد الله بن العجلان دنفا[3] سقيما يقول فيها الشعر ويبكيها حتى مات أسفا عليها. وعرضوا عليه فتيات الحي جميعا فلم يقبل واحدة منهن وقال في طلاقها:

فارقت هند طائعا   فندمت عند فراقها
فالعين تذرى دمعة   كالدر من آماقها
مُتحلبا فوق الرداء   يجول من رقراقها
خودٌ رواح طفله   ما الفحش من أخلاقها
ولقد ألذ حديثها   وأُسرٌ عند عناقها[4]

عبلة وعنترة

*وأشهر قصص "المتيمين" الجاهليين قصة عنترة وعبلة، وهي قصة تستمد شهرتها من ناحيتين: من شهرة صاحبها الفارس الشاعر البطل ثم من القصة الشعبية التي دارت حولها.

نشأ عنترة العبسي من أب عربي هو عمرو بن شداد وكان سيدا من سادات قبيلته وأم أجنبية هي زبيدة الأمة الحبشية، وكان أبوه قد سباها في بعض غزواته، وسرى السواد إلي عنترة من أمه، ورفض أبوه الاعتراف به، فاتخذ مكانه بين طبقة العبيد في القبيلة خضوعا لتقاليد المجتمع الجاهلي التي تقضى بإقصاء أولاد الإماء عن سلسلة النسب الذهبية التي كان العرب يحرصون علي أن يظل لها نقاؤها وعلي أن يكون جميع أفرادها ممن يجمعون الشرف من كلا طرفيه: الأباء والأمهات إلا إذا أبدى أحد هؤلاء الهجناء امتيازا أو نجابة فإن المجتمع الجاهلي لم

---

[1]- أرسلته : أطلقته .
[2]- الزعفران : نبت يُستخرج منه صباغ أصفر .
[3]- الدنف : المريض المشرف على الموت .
[4] - الأغاني ج ٢٢ ص ٢٣٧ - ٢٣٨ .

يكن يرى في هذه الحالة ما يمنع من إلحاقه بأبيه. وحانت الفرصة لعنترة في إحدى غارات طيىء علي عبس، فأبدى شجاعة فائقة في رد المغيرين وأنتزع بهذا اعتراف أبيه به، واتخذ مكانه فارسا من فرسان عبس الذين يشار إليهم بالبنان.

ووقف طفل الحب الخالد يلقى سهامه النافذة ليجمع بين قلب عنترة وقلب ابنة عمــه عبلــة بنت مالك، ويتقدم عنترة إلي عمه يخطب إليه ابنته، ويقف اللون و النسب مرة أخرى في طريقــه فقد رفض مالك أن يزوج ابنته من رجل يجرى في عروقه دم غيــر عربــي وأبــي كبريــاؤه أن يرضى بعبد أسود – مهما تكن شجاعته وفروسيته – زوجا لابنته العربيــة الحــرة النقيــة الــدم الخالصة النسب و يُقال أنه طلب منه – تعجيزا له وسدا للسبل في وجهه – ألف ناقــة مــن نــوق الملك النعمان المعروفة بالعصافير مهرا لابنته، ويُقال أن عنترة خرج في طلب عصافير النعمــان حتى يظفر بعبلة وأنه لقي في سبيلها أهوالا جساما ووقع في الأسر، وأبدى في سبيل الخلاص منه بطولات خارقة وتحقق في النهاية حلمه، وعاد إلي قبيلته ومعه مهر عبلة آلفا من عصافير الملــك النعمان. ولكن عمه عاد يماطله ويكلفه من أمره شططا ثم فكر في أن يتخلص منه فعــرض ابنتــه علي فرسان القبائل علي أن يكون المهر رأس عنترة ثم تكون النهاية التي أغفلتها المصادر القديمة وتركت الباحثين عنها يختلفون حولها، فمنهم من يرى أن عنترة فاز بعبلة وتزوجها ومــنهم مــن يرى أنه لم يتزوجها وإنما ظفر بها فارس آخر من فرسان العرب.

وفي أغلب الظن أن عنترة لم يتزوج عبلة ولكنة قضى حياته راهبا متبتلا فــي محــراب حبها يغنى لها ويتغنى بها ويمزج بين بطولته وحبه مزاجا رائعا جميلا وهو يصرح فــي بعــض شعره أنها تزوجت وأن زوجها فارس عربي ضخم أبيض اللون . يقول لها في إحــدى قــصائده الموثوق بها التي يرويها الأصمعي الثقة:

أما تريني قد نحلت ومن يكن　　غرضا لأطراف الأسنة ينحل

فلرب أبلج مثل بعلك بادن　　ضخم علي ظهر الجواد مُهبل

غادرته متعفرا أوصاله　　و القوم بين مجرّح ومجدّل[1]

لقد تزوَّجت عبلة من غير عنترة بعد ذلك الكفاح الطويل الذي قام به من أجلهــا وأبــى القــدر أن يحقق للعاشقين حلمهما الذي طالما عاشا فيه. وعاش عنترة بعد ذلك عمرا طويلا يتذكر حبه القديم ويحن إلي أيامه الخالية ويشكو حرمانه الذي فرضته عليه أوضاع الحياة وتقاليــد المجتمــع، وقــد طوى قلبه علي أحزانه ويأسه وألقى الرماد علي الجمرة المتقدة بين جوانحه وهــو رمــاد كانــت

[1]- غرضا يعنى هدفا . أبلج: أبيض مشرق الوجه . مهبل : كثير اللحم ممتلئ الجسم . مجدل : قتيل .

ذكريات الماضي تلح عليه من حين إلي حين فتكشف عن الجمرة التي لم تنطفىء جذوتها من تحته، حتى ودّع الحياة وأسدل الموت الستار على قصة حبه الخالدة[1].

ظبية أبى ميَّاس

*ذكر ابن القيم الجوزي في "أخبار النساء" قال:

حكى الأصمعي قال: خرج المهدي حاجا حتى إذا كنا ببعض الطريق إذا أعرابي يقول: يا أمير المؤمنين جعلني الله فداك أنا عاشق- وكان المهدي يحب ذكر العشاق وحديثهم – موكل به بعض الغلمان. فلما نزل أمر بإحضاره، قال: أنت المنادى؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال له: ما اسمك؟ قال: أبو مياس. قال أمير المؤمنين: منْ عشيقتك؟ قال له: ابنة عمى وقد أبى عليّ أبوها أن يزوجنيها. قال: لعله أكثر منك مالا؟ قال: أنا اكثر منه مال. قال له: فما قصتك؟ قال له: ادْن رأسك منى. فجعل المهدي يضحك وأصغى إليه برأسه. قال له: إني هجين. قال له: ليس يضرك ذلك، أخو أمير المؤمنين وأكثر أولاده هجناء. ثم قال له: وأين عمك؟ قال له: علي ثلاثة أميال. قال: فأرسل أمير المؤمنين في طلبه فجيء به فقال له: ما لك لا تزوج أبا مياس فإني أرى عليه نعمة؟ قال: متاع سوء وليس مثلي يزوج مثله. قال: فإن الذي كرهت ليس مما يعاب به عندنا وأنا معط صداق ابنتك عشرة آلاف درهم ومعوضك مما ذكرت عشرة آلاف درهم. قال: فذلك لك. قال: فخرج أبو مياس وهو يقول:

وابتعت ظبية بالغلاء وإنما ... يعطى الغلاء لمثلها أمثالي

وتركت أسواق القباح لأهلها ... إن القباح وإن رخصن غوالي[2]

الفراق.. الفراق – لعن الله الفراق

*روى عن ابن عباس أنه قال:

لما أُعتقت بربرة وكان زوجها عبدا حبشيا مولي لبنى المغيرة خُيرت فاختارت فراقه. فكان الرجل يطوف حولها ودموعه تسيل علي خديه حبا لها ويتبعها ويترضاها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه العباس: أما ترى شدة حبه لها وشدة بغضها له؟ فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: لو تزوجته. قالت: إن أمرتني!

قال: لا أمرك.. ولكنى شفيع.

فلم تفعل.

---

[1]- الحب المثالي عند العرب ص ٦٧- ٧٠ .

[2]- القباح : من القبح .

كان ذلك أحبَّ إليّ من حجي

*حدَّث إبراهيم بن ميمون قال:

حججت في أيام الرشيد فبينا أنا بمكة أجول في سككها فإذا أنا بسوداء قائمة ساهية، فأنكرت حالها ووقفت أنظر إليها، فمكثت كذلك ساعة، ثم قالت:

أعمرو علام تجنبتني	أخذت فؤادي فعذبتني
فلو كنت يا عمرو خبرتني	أخذت حذاري فما نلتني

قال: فدنوت منها، فقلت: يا هذه من عمرو؟

فارتاعت من قولي وقالت: زوجي.

فقلت: وما شأنه؟

قالت: أخبرني أنه يهواني وما زال يدس إليَّ ويتبعني في كل طريق ويشكو شدة وجده حتى تزوجني فلبث معي قليلا – وكان له عندي من الحب مثل الذي كان لي عنده ثم مضى إلى جدة وتركني.

قلت: صفيه لي.

فقالت: أحسن من تراه وهو أسمر حلو ظريف.

قلت: فخبريني.. أتحبين أن أجمع بينكما؟

فقالت: فكيف لي بذلك وظنتني أهزل بها.

قال: فركبت راحلتي وذهبت إلي جدة، ووقفت في المرقى أنظر لي من يعمل في السفن وأنادي: يا عمرو.. يا عمرو. فإذا به خارج من سفينة فعرفته بالصفة التي روتها المرأة. فقلت – أعمرو علام تجنبتني!... وأسمعته الأبيات من الشعر.

فقال: هيه هيه. ثم أطرق هنيهة.

فقلت له: ألا ترجع؟

فقال: بأبي أنت ومن لي بذلك؟.. ذلك والله أحبّ الأشياء إليّ ولكن منعني كما ترى طلب المعاش.

قلت: كم يكفيك كل سنة؟ قال: ثلاثمائة درهم. فأعطيته ثلاث آلاف درهم وقلت: هذه لعشر سنين ورددته إليها وكان ذلك أحبّ إليَّ من حجي!

بين السماء والأرض

*كان إسحاق بن سليمان بن علي[1] شابا ظريفا، محبا للشعر، فخرج ذات يوم، وأبوه يلي البصرة لأبي جعفر المنصور متنزها إلي ناحية البادية. فلقي أعرابيا فصيحا إلا أنه شاحب اللون مصفرا ظاهر النحول فمضى عنه، فقال له: ما بالك فو الله إنك لفصيح، قال له: أما ترى الجبلين؟ قال: قلت: بلي. قال: في طلابهما ما شغلني عن إنشادك وما ذاك؟ قال: ابنة عم لي قد تيّمتني، وأذهلت عقلي، وتالله أنه يأتي عليّ لا أدرى أفي السماء أنا أم في الأرض. قال: قلت: وما يمنعك منها؟ قال: قلة ذات يدي. قلت: وكم مهرها؟ قال: خمسون ناقة. قال: قلت: فيزوجونك إذا دفعتها؟ قال: نعم. فقلت له: أنشد لي مما قلت فيها فأنشدني:

العلم الفرد الذي في ظلاله   غزالان مكحولان يرتعيان[2]

منهما صيدا فلم أستطعهما   وخبْلا ففاتاني وقد خبلاني[3]

قال: فقلت له: يا أعرابي لقد قتلتني بقتلك، فنفيت من العباس إن لم أقم بأمرك. فرجع إلى البصرة فأخذ جماعة من أهله وما احتاج إليه، وحمل الأعرابي وسار إلي الجارية، فخطبها إلى الفتى فزوجه وساق إليه ستين ناقة، وأقام عندهم ثلاثة أيام نحر فيها ثلاثين جزورا ووهب للأعرابي و للجارية مثل ذلك وانصرف إلي البصرة[4].

مات فرحا وماتت كمدا

*وحُكى عن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب رضى الله تعالي عنه أنه قدم علي عبد الملك بن مروان فجلس ذات ليلة يسامر فتذاكر الغناء والجواري المغنيات والعشق، فقال عبد الملك لعبد الله: حدثني بأمر ما مرّ لك في هذه الأغاني، وما رأيت من الجواري.

قال نعم يا أمير المؤمنين، اشتريت جارية مولدة بعشرة آلاف درهم، وكانت حاذقة مطبوعة، فوُصفت ليزيد بن معاوية فكتب إليّ في شأنها، فكتبت إليه والله لا تخرج مني ببيع ولا هبة، فأمسك عنى فكانت عندي علي تلك الحالة لا ازداد فيها إلا حبا. فبينما أنا ذات ليلة إذ أتتني عجوز من عجائزنا فذكرت لي أن بعض أعراب المدينة يحبها وتحبه، ويراها وتراه، وأنه يجيء كل ليلة متنكر يقف بالباب فيسمع غناءها ويبكى شغفا وحبا ، فراعيت ذلك الوقت الذي قالت عليه

---

[1] – إسحاق بن سليمان بن علي: هو والى البصرة ، وابن عم المنصور.

[2] – العلم : الجبل والسيد .

[3] – أرعتهما : من الروع ، وهو الخوف ، والخبل : فساد العقل .

[4] – أخبار النساء لابن الجوزي ص ١٨٣ .

العجوز، فإذا به قد أقبل مقنعا رأسه وقعد مستخفيا فلم أدع بها في تلك الليلة، وجعلت أتأمل موضعها وموضعه فإذا بها تكلمها وتكلمه، ولم أر بينهما إلا عتبا ولم يزالا كذلك حتى ابيضّ الصبح، فدعوت بها وقلت لقيمة الجواري: أصلحي فلانة بما يمكنك فأصلحتها وزينتها، فلما جاءت بها قبضت علي يديها وفتحت الباب وخرجت، فجئت إلي الفتى فحركته فانتبه مذعورا، فقلت: لا بأس عليك ولا خوف هي هبة منى إليك، فدهش الفتى ولم يجبني، فدنوت إلي أذنه، وقلت: قد أظفرك الله تعالي ببغيتك، فقم وانصرف بها إلي منزلك فلم يرد جوابا فحركته، فإذا هو ميت، فلم أرَ شيئا قط كان أعجب من أمره.

قال عبد الملك: لقد حدَّثتني بعجب فما صنعت الجارية؟

قلت: ماتت الله بعدها بأيام بعد نحول عظيم وتعليل وماتت كمدا ووجدا علي الغلام[1].

ما للحبيبة لا تعود!

*عن محمد بن قيس الأسدي قال: وجهني عامل المدينة إلى يزيد بن عبد الملك وهو خليفة فخرجتُ، فلما قربت المدينة بليلتين أو ثلاث، وإذا أنا بامرأة قاعدة على قارعة الطريق وإذا رجل رأسه في حجرها كلما سقط رأسه أسندته، فسلمت فردت ولم يرد الشاب، ثم تأملتني فقالت: يا فتى هل لك في أجر لا مرزئة فيه؟ قلت: سبحان الله وما أحب الأجر إليّ وأن رُزئت فيه! فقالت: هذا ابني وكان إلفا لابنة عم له تربيا جميعا ثم حجبت عنه فكان يأتي الموضع والخباء ثم خطبها إلى أبيها فأبي عليه أن يزوجها ونحن نرى عيبا أن تزوج المرأة من رجل كان بها مغرما، وقد خطبها ابن عم لها وقد زوجت من ثلاث فهو على ما ترى لا يأكل ولا يشرب ولا يعقل، فلو نزلت إليه فوعظته، فنزلت إليه فوعظته فأقبل عليَّ وقال:

ألا ما للحبيبة لا تعود	أبخل بالحبيبة أم صدود
مرضت فعادني قومي جميعا	فمالك لم ترى فيمن يعود
فقدت حبيبتي فبليت وجدا	فقد الإلف يا سكنى شديد
وما استبطأت غيرك فاعلميه	وحولي من بنى عمى عديد
فلو كنت السقيمة جئت أسعى	إليك ولم ينتهنهني الوعيد

قال: ثم سكن عند آخر كلمته، فقالت العجوز: فاضت والله نفسه ثلاثا! فدخلني أمر لا يعلمه إلا الله، فاغتممت وخفت موته لكلامي. فلما رأت العجوز ما بي، قالت: هون عليك! مات بأجله واستراح مما كان فيه وقدم على رب كريم فهل لك في استكمال الأجر؟ هذه أبياتي منك

---

[1]- المستطرف ج٢ ص ٢٥٨ .

غير بعيدة، تأتيهم فتنعاه إليهم وتسألهم حضورهم، فركبت فأتيت أبياتا منها على قدر ميـل فنعيتـه إليهم، وقد حفظت الشعر فجعل الرجل يسترجع. فبينما أنا أدور إذا امرأة قد خرجت مـن خبائهـا تجر رداءها ناشرة شعرها، فقالت: أيها الناعي بفيك الكَثْكَثُ[١]، بفيك الحجر من تنعي؟ قلت فلان بن فلان فقالت: بالذي أرسل محمدا واصطفاه هل مات؟ قلت: نعم. قالت: فماذا الذي قال قبل موتـه؟ فأنشدتها الشعر فوالله ما تتهنهت[٢] أن قالت:

عذابي أن أزورك يا حبيبي	معاشر كلهم واش حسود
أشاعوا ما سمعت من الدواهي	وعابونا وما فيهم رشيد
وأما إذ ثويت اليوم لحدا	فدور الناس كلهم لحود
فلا طابت لي الدنيا فواقا	ولا لهم ولا أثرى العبيد

ثم مضت معي ومع القوم تُولول حتى انتهينا إليه، فغسلناه وكفناه، وصلينا عليه فأكبت على قبـره، وخرجت لطيّتي حتى أتيت يزيد بن عبد الملك وأوصلت إليه الكتاب فسألني عن أمور الناس، قال: هل رأيت في طريقك شيء؟ قلت: نعم رأيت والله عجبا وحدثته الحديث فاستوى جالسا، ثم قال: لله أنت يا محمد بن قيس امض الساعة قبل أن تعرف جواب ما قدمت له حتى تمر بأهل الفتى وبنـي عمه وتمر بهم إلى عامل المدينة وتأمره أن يثبتهم في شرف العطاء، وإن كان أصابها ما أصـابه فافعل ببني عمها ما فعلت ببني عمه، ثم ارجع إليّ حتى تخبرني بالخبر، وتأخذ جواب مـا قـدمت له. فمررت بموضع القبر فرأيت إلى جانبه قبر آخر فسألت عنه فقيل: قبر امرأة أكبت على قبـره ولم تذق طعاما ولا شرابا ولم ترفع عنه ثلاثة أيام إلا ميتة، فجمعت بنى عمها وبنى عمه وأثبتـهم في شرف العطاء جميعا[٣].

قتيلا العشق

*قيل: خرج أناس من بنى حنيفة يتنزهون إلى جبل لهم، فبصر فتى منهم يقال له عبـاس بجارية، فهويها وقال لأصحابه: والله لا أنصرف حتى أرسل إليهـا فطلبـوا إليـه أن يكـف وأن ينصرف معهم فأبي وأقبل يراسل الجارية حتى وقع في نفسها، فأقبل في ليلة إضـحيانة[٤] متنكبـا[٥] قوسه وهى بين اخوتها نائمة فأيقظها، فقالت: انصرف وإلا أيقظت اخـوتي فقتلـوك، فقـال: والله

---

[١]- الكثكث : دقائق التراب وفتات الحجارة وقيل : التراب مع الحجارة .

[٢]- ما تتهنهت : أي ما امتنعت.

[٣] - عيون الأخبار ج ٤ ص ١٢٨ .

[٤]- اضحيانه : مقمرة أو مضيئة .

[٥]- تنكب القوس : وضعها على منكبة .

للموت أيسر مما أنا فيه، ولكن لله أن أعطيتني يدك حتى أضعها على فؤادي ثم أنصرف، فأمكنتــه من يدها، فوضعها على فؤاده، ثم أنصرف. فلما كان من القابلة[1] أتاها وهى في مثل حالها، فقالت له مثل مقالتها ورد عليها، وقال: إن أمكنتني من شفتيك أرشفتهما انصرفت ثــم لا أعــود إليــك، فأمكنته من شفتيها فرشفهما ثم انصرف، فوقع في قلبها منه مثل النار، ونذر[2] به الحي، فقالوا: مــا لهذا الفاسق في الجبل؟ انهضوا بنا إليه حتى نخرجه منه فــأرسلت إليه: إن القوم يأتونــك الليلــة فاحذر، فلما أمسى قعد على مرقب[3] ومعه قوسه وأسهمه، وأصاب الحي من آخــر النهــار مطــر وندى فلهوا عنه، فلما كان في آخر الليل وذهب السحاب وطلع المطر خرجت وهى تريــده وقــد أصابها الطل، فنشرت شعرها وأعجبتها نفسها، ومعها جارية من الحي، فقالت: هل لك في عباس؟ فخرجتا تمشيان، ونظر إليهما وهو على المرقب فظن أنهما ممن يطلبه فرمى بهم فما أخطأ قلــب الجارية، ففلقه وصاحت الأخرى فانحدر من الجبل، وإذا هو بالجارية في دمها فقال:

نعب الغراب بما كرهــ ـــت ولا إزالة للقدر
تبكى وأنت قتلتها فاصبر وإلا فانتحر

ثم وجأ[4] في أوداجه بمشاقصه[5] وجاء الحي فوجدهما مقتولين فدفنوهما[6].

حديث العاشقين

*قال أحدهم: بينا أنا وصديق لي من قريش نمشى بالبلاط ليلا إذا بظل نسوة فـــي القمــر، فالتفتنا فإذا بجماعة نسوة فسمعت واحدة منهن وهى تقول: أهو هو؟ فقالت الأخرى: نعم والله إنــه لهو هو فدنت منى ثم قالت: يا كهل قل لهذا الذي معك:

ليست لياليك في خاخ بعائدة كما عهدت ولا أيام ذي سلم[7]

---

[1]- القابلة : الليلة التالية .

[2]- نذر : علم به .

[3]- المرقب : الموضع المشرف يرتفع عليه الرقيب .

[4]- وجأ : ضرب وشق ، والأوداج : عروق في العنق .

[5]- المشاقص : جمع مشقص، وهو نصل السهم أو سهم فيه نصل عريض .

[6]- عيون الأخبار ج ٤ ص ١٣٣ . وروى أيضا هذه القصة ابن عبد ربه في " العقد الفريد " عن هشام بن الكلبي و الهيثم بن عدي .

[7]- خاخ : موضع بين الحرمين ، وذو سلم : واد ينحدر على الذنائب على طريق البصرة إلي مكة .

فقلت له: أجب فقد سمعت فقال: قد والله قطع بي وارتج عليَّ فأجب عنـي فالتفـت إليهـا قلت:

فقلت لها يا عز كل مصيبة إذا وطنت يوما لها النفس ذلت[1]

فقالت المرأة: أوه، ثم مضت ومضينا حتى إذا كنا بمفرق في طريقين مضى الفتـى إلـى منزله ومضيت أنا إلى منزلي فإذا بجويرية تجذب ردائي فالتفت إليها فقالت: المرأة التـي كلمتـك تدعوك، فمضيت معها حتى دخلت دارا ثم صرت إلى بيت فيه حصير وثنيت لي وسادة فجلـست عليها، ثم جاءت الجارية بوسادة مثنية فطرحتها، وجاءت المرأة فجلـست عليهـا وقالـت: أنـت المجيب؟ قلت: نعم. قالت: ما كان أفظ جوابك وأغلظه، قلت: والله ما حضرني غيره. فبكـت ثـم قالت لي: والله ما خلق الله خلقا أحب إليّ من إنسان كان معك قلت: أنا الضامن لـك علـى مـا تحبين، قالت: أو تفعل؟ قلت: نعم. فوعدتها أن أتيها به في الليلة القابلة وانـصرفت، فـإذا الفتـى ببابي، فقلت: ما جاء بك؟ قال: علمت أنها سترسل إليك وسألت عنك فلم أجدك فعلمت أنك عنـدها فجلست أنتظرك فقلت: فقد كان كل ما ظننت ووعدتها أن أتيها بك في الليلة القابلـة فمـضى ثـم أصبحنا فتهيأنا ورحنا فإذا الجارية تنتظرنا فمضت أمامنا حتى دخلنا الدار فـإذا برائحـة الطِيـب وجاءت فجلست مليا ثم أقبلت عليه فعاتبته طويلاً ثم قالت:

وأنت الذي أخلفتني ما وعدتني وأشمت بي منْ كان فيك يلوم

وأبرزتني للناس ثم تركتني لهم غرضا أرمى وأنت سليم

فلو أن قولا يكلم الجسم قد بدا بجسمي من قول الوشاة كلوم[2]

ثم سكتت فسكت الفتى هنيهة ثم قال:

غدرت ولم أغدر وخنت ولم أخن وفي دون هذا للمحب عزاء

جزيتك ضعف الود ثم صرمتني فحبك في قلبي إليك أداء

فالتفتت إليّ وقالت: ألا تسمع ما يقول؟ قد أخبرتك، فغمزته فكف ثم قالت:

تجاهلت وصلي حين لجت عمايتي وهلا صرمت الحبل إذا أنا مبصر

ولي من قوى الحبل الذي قد قطعته نصيب وإذ رأيي جميع موفر[3]

ولكنما آذنت بالصرم بغتة ولست على مثل الذي جئت أقدر

[1]- وطنت : هيئت وأعدت، وذلت : خضعت واستسلمت .

[2]- الكلوم : الجراح .

[3]- رأى جميع: سديد .

...ثم قالت: أو قد طابت نفسك؟ لا والله ما فيك خير بعدها فعليك السلام ثم قامت والتفتت إليّ وقالت: قد علمت أنك لا تفي بضمانك عنه وانصرفنا[1].

نار في الحشا

*وذكر الزمخشري في "ربيع الأبرار" أن زبيدة بنت أبي جعفر قرأت في طريق مكة على حائط:

أما في عباد الله أو في إمائه كريم يجلي الهم عن ذاهب العقل[2]
له مقلة أما المآقي فقرحة وأما الحشا فالنار منه على رِجْل[3]

فنذرت أن تحتال لقائلهما حتى تجمع بينه وبين من يحبه، قالت: فإني لبمزدلفة إذ سمعت منْ ينشدهما، فاستدعيت به فزعم أنه قالهما في بنت عم له وقد حلف أهلها أن لا يزوجوها منه، فوجهت إلى الحي وما زالت تبذل لهم المال حتى زوجوه. وإذا المرأة أعشق من الرجل فكانت زبيدة تعده أعظم حسناتهم وتقول: ما أنا بشيء أسرّ منى بجمعي بين ذلك الفتى والفتاة[4].

صبابة

*وذكر أحمد بن الفضل الكاتب أن غلاما[5] وجارية كانا في كُتاب فهويها الغلام فلما كان في بعض أيامه في غفلة من الغلمان كتب في لوح الجارية:

ماذا تقولين فيمن شفَّه سقم من طول حبك حتى صار حيرانا

فلما قرأته الجارية اغرورقت عيناها بالدموع رحمة به وكتبت تحته:

إذا رأينا محبا قد أضَّر به طول الصبابة أوليناه إحسانا[1]

---

[1]- الأغاني ج ١٧ ص ١٠٦ - ١٠٨ .

[2]- يجلى: يكشف.

[3]- المآقي: مجاري الدمع. وعلى رجل: يعني على أشدها.

[4]- روضة المحبين ص ٣٩٠ .

[5]- هو علي بن الجهم، تقدَّم ذِكره .

رأيتك في المنام

*ذكر ابن عبد ربه في "العقد الفريد" قال: وحدّث أبو الحسن قال:

كان الواثق إذا شرب وسكِر رقد في موضعه الذي سكِر فيه، ومن سكْر من ندمائه تُـــرك ولم يخرج، فشرب يوما فسكر، ورقد وانقلب أصحابه إلا مغنيا أظهر التراقد[2] وبقيت معـــه مغنيـــة للواثق. فلما خلا المجلس وقّع المغنى في سحاءة[3] ودفعها إليها:

إني رأيتك في المنام كأنني مُترشق من ريق فيك البارد
وكأن كفك في يدي وكأنما بتنا جميعا في فراش واحد
ثم انتبهتُ ومنكباك كلاهما في راحتي وتحت خدك ساعدي

فأجابته:

خيرا رأيت وكل ما أبصرته ستناله منى برغم الحاسد
وتبينت بين خلاخلي ودمالجي وتجول بين مراسلي ومجاسدي
فنكون أنعمَ عاشقين تعاطيا مُلح الحديث بلا مخافة راصد

فلما مدت يدها لترمى إليه بالسحاءة رفع الواثق رأسه فأخذ السحاءة من يدها وقال لهمـــا: ما هذه؟ فحلفا له أنه لم يجرِ بينهما قبل هذا كلام ولا كتاب ولا رسول غير اللحظ إلا أن العشق قد خامرهم. فأعتقها وزوَّجها منه فلما أشهد له وتم النكاح أقامها الواثق إلى بيت من بعـــض البيـــوت فوقع بها[4]، ثم خرج فقال له: أردت أن تكشّخني[5] فيها وهي خـــادمتي فقـــد كـــشختك فيهـــا وهـــى زوجتك!

---

[1]- المرجع السابق ص ٣٩١ .

[2]- تراقد : تظاهر بالنوم .

[3]- السحاءة : في الأصل : غلاف الكتاب وهنا تعنى الورقة .

[4]- وقع بها: أي نكحها وجامعها.

[5] – تكشخني : تجعلني كشخان وهو الذي لا غيرة له على أهله ويزني بعرضه .

محبةٌ لا غلمة

*ذكر أبو الفرج الأصفهاني في " الأغاني قال: قال يزيد حوراء:

كنت أجلس بالمدينة على أبواب قريش فكانت تمر بي جارية تختلف إلى الزرقاء تتعلم منها الغناء فقلت لها يوما: افهمي قولي وردي جوابي وكوني عند ظني، فقالت: هات ما عندك فقلت: بالله ما اسمك؟ فقالت: ممنّعة، فقلت لها:

ليهْنك منى أنني لست مفشيا   هواك إلى غيري ولو مت من كرب

ولا مانحا خلقا سواك مودتي   ولا قائلا ما عشت من حبكم حسبي

قال: فنظرت إليّ طويلا ثم قالت: أنشدك الله أعن فرط محبة أم اهتياج غلمة[1] تكلمت؟ فقلت: لا والله ولكن عن فرط محبة، فقالت:

فو الله رب الناس لا خُنتك الهوى   ولا زلت مخصوص المحبة من قلبي

فثق بي فإني قد وثقت ولا تكن   على غير ما أظهرت يا أخا الحب

اللص العاشق

*عرض[2] خالد بن عبد الله القسري سجنه يوماً، وكان فيه يزيد بن فلان البجلي، فقال له خالد: في أي شيء حُبست يا يزيد؟ قال: في تهمة - أصلح الله الأمير - قال: أفتعود إن أطلقتك؟ قال: نعم، وكره أن يعرّض بقصته لئلا يفضح معشوقته. فقال خالد: أحضروا رجال الحي حتى نقطع يده بحضرتهم، وكان ليزيد أخ فكتب شعرا ووجَّه به إلى خالد:

أخالدُ قد أعطيت في الخلق رتبة   وما العاشق المسكين فينا بسارق

أقر بما يأته المرء أنه   رأى القطع خيرا من فضيحة عاشق

ولولا الذي قد خفت من قطع كفه   لألفيت في شأن الهوى غير ناطق

إذا بدت الرايات للسبق في العُلى   فأنت ابن عبد الله أول سابق

---

[1]- غلمة : شهوة .

[2]- عرض : تفقد .

فلما قرأ خالد الأبيات علم صدق قوله، فأحضر أولياء الجارية، فقال: زوجوا يزيد فتـــاتكم، فقالوا: أما وقد ظهر عليه ما ظهر فلا. فقال: لئن لم تزوّجوه طائعين لتزوجنه كارهين، فزوَّجـــوه ونفد خالد المهر من عنده[1].

[1]- روضة المحبين ص ٣٨٦ . وانظر هذه القصة كاملة في "جامع التحفة البهية" ، وألف ليلة وليلة " الليلة ٢٩٨ .

خمسة أعتقت خمسة

*وكان بعض الخلفاء قد نذر علي نفسه أن لا ينشد شعرا ومتى أنشد بيت شعر فعليه عتق رقبة، قال: فبينما هو في الطواف يوما إذ نظر إلي شاب يتحدث مع شابة جميلة الوجه، فقال لـــه: يا هذا اتق الله في مثل هذا المكان.

فقال: يا أمير المؤمنين ولله ما ذاك لخنى، ولكنها ابنة عمى وأعز الناس عليّ وإن أباهـــا منعني من تزوجها لفقري وفاقتي، وطلب منى مائة ناقة ومائة أوقية من الذهب، ولم أقـــدر علـــي ذلك، قال: فطلب الخليفة أباها ودفع إليه ما اشترطه علي ابن أخيه ولم يقم من مقامة حتى عقد له عليها.

ثم دخل الخليفة إلي بيته وهو يترنم ببيت من الشعر فقالت له الجارية من حظاياه: أراك اليوم يا مولاي تنشد الشعر أفنسيت ما نذرت أم نراك قد هويت، فأنشد هذه الأبيات يقول:

تقول وليدتي لما رأتني	طربت وكنت قد أسليت حينا
أراك اليوم قد أحدثت عهدا	وأورثك الهوى داء دفينا
بحقك هل سمعت لها حديثا	فشاقك أو رأيت لها جبينا
فقلت شكا إلي أخ محب	كمثل زماننا إذ تعلمنا
وذو الشجو القديم وأن تعزّى	محب حين يلقى العاشقينا

ثم عدّ الأبيات فإذا هي خمسة أبيات فاعتق خمس رقاب ثم قال: لله درك من خمسة أعتقت خمسة وجمعت بين رأسين في الحلال[١].

ورقبة لكل بيت أيضا

*وروى ابن عبد ربه في "العقد الفريد" هذه الرواية عن عمر بن أبي ربيعة قـــال: بينمـــا عمر بن أبي ربيعة القرشي يطوف بالبيت إذ نظر إلي فتى من نمير يلاحظ جارية في الطـــواف فلما رأى منة ذلك مرارا، أتاه، فقال له: يا فتى أما رأيت ما تصنع؟ فقال له الفتى: يا أبا الخطاب لا تعجل علي فإن هذه ابنة عمى وقد سميت لي ولست اقدر علي صداقها ولا أظفر منها بأكثر مما ترى، وأنا فلان وابن فلان، وهذه فلانة ابنة فلان، فعرفهما عمر فقال له: اقعد يا ابن أخـــي عنـــد هذه السارية حتى يأتيك رسولي. ثم ركب دابته حتى أتى منزل عم الفتى، فقرع الباب فخرج إليه

١- المستطرف ج ٢ ص ٢٥٦ .

الرجل. فقال: ما جاء بك يا أبا الخطاب في مثل هذه الساعة؟ قال: حاجة عرضت قبلك في هــذه الساعة. قال: هي مقضية. قال عمر: كائنة ما كانت؟ قال: نعم قال: فإني قد زوجت ابنتك فلانــة من ابن أخيك فلان. قال: فإني قد أجزت ذلك.

فنزل عمر عن دابته، ثم أرسل غلاما إلي داره فأتاه بألف درهم فساقها عن الفتــى، ثــم أرسل إلى الفتى فأتاه، فقال لأبي الجارية: أقسمت عليك إلا ما ابتنى بها هذه الليلة. قال له: نعــم. فلما أدخلت علي الفتى انصرف عمر إلي داره مسرورا بما صنع فرمى بنفسه علي فراشه وجعل يتململ ووليدة له عند رأسه، فقالت: يا سيدي، أرقت هذه الليلة أرقا لا أدرى ما دهمــك؟ فأنــشأ يقول:

تقول وليدتي لما رأتني	طربت وكنت قد أقصرت حيا
أراك اليوم قد أحدثت شوقا	وهاج لك الهوى داء دفينا
وكنت زعمت أنك ذو عزاء	إذا ما شئت فارقت القرينا
بعيشك هل رأيت لها رسولا	فشاقك أم لقيت لها خدينا
فقلت: شكا إلي أخ محب	كبعض زماننا إذ تعلمينا
فقص علي ما يلقى بهند	يذكر بعض ما كنا نسينا
وذو القلب المصاب وأن تعزّى	مشوق حين يلقى العاشقينا

ثم ذكر يمينه فاستغفر الله وأعتق رقبة لكل بيت.

سلامة الزرقاء والقس

*قال الزبير[1] بن بكار: كان عبد الرحمن بن أبي عمار من عباد أهل مكة، فسمي القــس من عبادته. فمر ذات يوم بدار سهل بن عبد الرحمن بن عوف مولى سلامة الزرقاء، وهي تغني، فسمع غناءها، فبلغ منه كل مبلغ، فرآه مولاها وتبين ما لحقه، فقال له: هل لك أن تــدخل إليهــا وتسمع منها؟ فامتنع وأبى. فقال له: أنا أقعدك في موضع تسمع من غنائها ولا تراك ولا تراهــا. ولم يزل به حتى دخل وسمع غناءها، فأعجبه، فقال له: هل لك أن أخرجها لك؟ فــامتنع بعــض الامتناع، ثم أجابه. فأخرجها إليه، وأقعدها بين يديه، وغنته، فشغف بها، وشغفت به. وكان أديبــا

---

[1]- هو أبو عبد الله الزبير بن بكار (٧٦٦ – ٨٧٠) من علماء المدينة المنورة. وتولى القضاء في مكة المكرمة. له كتاب (نسب قريش وأخبارهم) مخطوط في أوكسفورد .

ظريفا. واشتهر أمره معها بمكة حتى سموها سلامة القس. وخلا معها يوما، فقالت له: أنـــا، والله أحبك فقال لها: أنا، والله، كذلك. قالت له أحب أن أضع فمك على فمي. قال: وأنا والله. قالت فمــا يمنعك من ذلك، فو الله أن الموضع لخال؟ فقال لها: ويحك، إني سمعت الله عز وجل يقول فـــي كتابه: (الأخلاء[1] يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين[2]) وأنا أكره أن تكون خلة[3]ما بيني وبينـــك عداوة يوم القيامة. ثم نهض وعيناه تذرفان من حبها وعاد إلى الطريقة التي كان عليها من النسك والعبادة. وكان يمر في بعض الأيام ببابها فيرسل إليها بالسلام فيُقال له: أدخل فيأبى[4].

وانتهي خبره إلى عبد الله بن جعفر[5] فخرج حاجا بسببه وبعـــث إلـــى مـــولى الجاريـــة واشتراها منه بأربعين ألفا، وأمر قيِّمة[6] جواريه فحلتها وزينتها وبلغ الناس قدومه، فدخلوا إليـــه للسلام عليه وفيهم عبد الرحمن بن أبى عمار. فلما أراد الشخوص[7]. استجلسه، فقال له: ما فعـــل حبّ فلانة؟ قال: مشوب[8] باللحم والدم والمخ والعظم والعصب وأمر بالجارية فأُخرجـــت إليـــه، وقال: هي هذه؟ قال:

نعم، أصلحك الله. قال: إنما اشتريتها لك، فو الله ما دنوت منها، فشأنك بهـــا، فهـــي لـــك مباركة. وأمر له: خذ هذا المال لئلا تهتم بها وتهتم بك. قال: فبكى عبد الرحمن فرحا وقال: يـــا أهل البيت قد خصكم الله بأشرف ما خصَّ به أحدا من صلب آدم، فلتهنئكم هذه النعمة، و بارك لكم فيها فكان هذا الفعل بعض ما اشتهر به عبد الله بن جعفر من الجود[9].

حَبَابة ويزيد بن عبد الملك

*أُفتتن الأمير – وقت ذاك – يزيد بن عبد الملك بجارية تُدعى "حَبَابة"، ولم يقدر علـــي فراقها عندما جاء إلي المدينة زائرا فاشتراها وعاد بصحبتها إلي دمشق عاصمة الخلافـــة، لكـــن أخاه سليمان أمير المؤمنين – آنذاك – أبى عليه ذلك وهدده بالحجر عليه ما لم يطردها فاضـــطر

---

[1]- الأخلاء : جمع خل وهو الصديق الودود ٠

[2]- سورة الزخرف ، الآية (٦٧) ٠

[3]- الخلة : الصداقة والإخاء ٠

[4]- أخبار النساء لابن الجوزي ص ٤١ ٠

[5]- هو عبد الله بن جعفر بن أبى طالب أحد أجواد العرب.

[6]- القيمة: الجارية التي نتولى أمر الجواري أو هي رئيسة الجواري.

[7]- الشخوص : الخروج.

[8]- مشوب : ممزوج.

[9]- المرجع السابق ص ٥١.

يزيد إلي بيعها والألم يعتصر قلبه والحزن يدب بين جوانبه ولا سيما حينما طرق سمعه صـــوتها تشدو:

سلكوا بطن مخيص[1]   ثم ولوا راجعينا

أورثوني حين ولوا   طول حزن وأنينا

ولم يطل فراق العاشقين طويلا إذ لفظ أخوه سليمان بن عبد الملك أنفاسه الأخيرة وتـــولي يزيد سددة الحكم. وكان أول عمل قام به هو استعادة حبابة إلي قصر الخلافـــة وإطـــلاق ســـراح الشاعر "الأحوص"[2] الذي كانت حبابة تتغنى بقصائده، وكان لها فضل كبير في إغراق يزيد فـــي حبها وشغله عن زوجته سعدى بنت عبد الله ، بل وأمور الخلافة وشئون الرعية إلي الحد الـــذي جعله ينيب عنه منْ يؤم المسلمين في الجامع الكبير بعاصمة الخلافة. وذات يوم أراد يزيد أن يثير غيرة حبابة، فقال لها ولجارية أخرى تدعى "سلامة" أيتكما غنتني ما في نفسي فلها مـــا تطلـــب فقالت سلامة:

علاقة حب لج في سنن الصبا   فأبلي وما يزداد إلا تجددا

ولو كان بذل الجود والمال مخلدا   من الناس إنسانا لكنت المخلدا

ولكنها لم تصب ما في نفس يزيد فغنت حبابة بيتين من أشعار ابن قبس الرقيات:

خلقٌ من بنى كنانة حولي   بفلسطين يسرعون الركوبا

هزئت أنْ رأتْ مشيبا برأسي   لا تلومني ذوائبي أنْ تشيبا

فأصابت حبابة ما في نفس يزيد فانتشى وسألها: ما تطلبين يا حبابـــة؟ فقالـــت: تهبنـــي سلامة! فأجابها الخليفة هي ومالها لك.

وكما يقال ماتت حبابة علي أهون سبب إذ شَرِقَتْ بحبةِ رمَّانة كانت تزدردها مع الخليفـــة في دار شؤم بأطراف دمشق فماتت بين يدي يزيد الذي أذهلته المفاجأة وبقى جالسا بجانب جسدها ولم يدفنها إلا بعد أن لامه القوم. ولكن ظلّ جزعه عليها مما جعل القوم يشكون في سلامة عقلـــه ولم تمضى سوى أيام معدودات حتى راح يزيد في غيبوبة أسلمته للموت فدفنوه بجوار قبرها[3].

---

[1]- بطن مخيص : اسم مكان .

[2]- أصدر يزيد بن عبد الملك عفوا عن الأحوص الذي كان نزيل السجن في عهدي الخليفتين سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز لمجونه .

[3]- انظر الجواري و الحظايا ص ٤٢-٤٦ .

دنانير ويحيى البرمكي

*وروى عن يحيى بن خالد بن برمك قال: كنت أهوى جاريتي دنانير، وهي لمولاتها زهراء، فلما وضع المهدي الرشيد في حِجري[1] اشتريتها، فلم أُسرّ بشيء من الدنيا مثل سروري بها وبملكها فما لبثت إلا يسيرا حتى وجَّه المهدي ابنه الرشيد غازيا إلي بلد الروم فخرجت معه فعظم عليَّ فراقها فأقبلت لا أتهنأ بطعام ولا شراب صبابة[2] بها وذكرا لها. فأنا ليلة في مضربي وقد أصابني برد شديد وثلج كثير وأنا أتقلب علي فراشي أذكر الجارية، إذ سمعت غناء خفيا وصوت عود بالقرب منى فأنكرت ذلك، وجلست علي فراشي فأشجاني الصوت من غير أن أفهم حتى أبكاني، فقمت ولم أوقظ أحدا من المعسكر حتى انتهيت إلي خيمة صغيرة من خيام الجند فإذا فيها سراج فدنوت منها، فإذا فتى جالس وإذا بين يديه ركوة فيها شراب وفي حِجره عود يضرب عليه ويتغنى بهذا الصوت:

ألا يا لَقَومي غل مرتهن	ومنوا علي مستشعر الهم و الحزن[3]
ألم ترها بيضاء، رودا شبابها	لطيفة طي البطن كالشادن الأغن[4]

قال: فكلما غنى بيتا بكى وتناول قدحا فصب فيه من ذلك الشراب وشرب ثم يعود إلي مثل ذلك. قال: فأقمت طويلا أرى ما يفعل وأبكى لبكائه، ثم سلمت فردّ السلام، واستأذنت فأذن لي فدخلت فلما رآني جلّني وأوسع لي. فقلت: يا فتى خبرني بخبرك وما أنت فيه وما سبب هذا البكاء؟ قال: أنا فتى من الأنبار[5]، لي ابنة عم قد نشأنا جميعا فعلقتها وعلقتني، ثم بلغنا فحجبت عنى، فسألت عمى ليزوجنيها فأجاب فمكثت حينا أحتال لمهرها حتى تهيأ فأديته، فدخلت بها فلما أن كان يوم سابعها ضرب علي البعث وخرجت وبي من الشوق إليها ما لا أجده، فحملت معي هذا العود فإذا أصبت شرابا في بعض هذه القرى أخذت منه شيئا ثم أفعل ما ترى تذكارا إليها.

فقلت: فهل تعرفني؟ فأنكرني، فما أدرى أتعمدا أم حقيقة.

قال: فقلت له: أنا يحيى بن خالد فلما قلت له ذلك نهض قائما، فقلت: اجلس فإذا كان غدا فألقني فهذا مضربي بالقرب منك فإني أصير منك إلي ما تحب.

---

[1]- حجره : أي في رعايته وكنفه .

[2]- صبابة بها : عشقا لها .

[3]- غل : قيد ، ومرتهن : أسير .

[4]- الرود : اللين ، ويقصد أنها في مقتبل العمر ، وطي البطن : الحضر ، و الشادن الأغن : ولد الظبية المصون.

[5]- الأنبار : مدينة قرب بلح ، وكذلك هي مدينة على نهر الفرات غربي بغداد " انظر "معجم البلدان" لياقوت الحموي" .

قال: ووافق ذلك رسولا قد هيأناه إلي المدينة فما كان أسرع شيء حتى دنا الصبح وتهيأ الناس للرحيل، فأول من لقيني ذلك الفتى، فأثبت[1] وجهه وقلت له: من أنت، وفي قيادة من أنت؟ فخبرني، فمضيت حتى دخلت علي الرشيد ومعي المؤتمرات فكنت آمرها علي سمعة من عنوان يكون له فيها، فقلت: وفتى من الأنبار فلان بن فلان يطلق سراحه ويعطى عشرة آلاف درهم معونة له ويصحب فلانا الرسول. ففعل ذلك وانصرف إلي أهله[2].

أمصطبرٌ للبيْن أم أنا جازعٌ

*وذكر أبو العباس المبرد قال: كان رجلٌ بالكوفة يُدعى ليث بن زياد قد ربي جارية وأدّبها فخرجت بارعة في كل فن مع جمال وافر، فلم يزل معها مدة حتى تبيّنت منه الحاجة فقالت: يا مولاي لو بعتني كان أصلح لك مما أراك به وإن كنت لأظن أني لا أصبر عنك. فقصد رجلا من الأغنياء يعرفها ويعرف فضلها فباعها بمائة ألف درهم، فلما قبض المال وجّه بها إلي مولاها وجزع عليها جزعا شديدا فلما صارت الجارية إلي سيدها نزل بها من الوحشة للأول ما لم تستطع دفعه ولا كتمه فباحت به وقالت:

أتاني البلا حقا فما أنا صانع	أمصطبرٌ للبين أم أنا جازعٌ
كفي حزنا أنى علي مثل جمرة	أقاسي نجوم الليل والقلب جازع[3]
فإن يمنعوني أن أبوح بحبه	فإني قتيل والعيون دوامع

فبلغ سيدها شعرها فدعا بها وأرادها فامتنعت عليه وقالت له: يا سيدي إنك لا تنتفع بي، قال: ولم ذاك؟ قالت: إني لما بي. قال: وما بك؟ صفيه لي، قالت: أجد في أحشائي نيرانا تتوقد لا يقدر علي إطفائها أحدا، لا تسأل عما وراء ذلك، فرحمها ورق لها وبعث إلي مولاها فسأل عن خبره فوجد عنده مثل الذي عندها فأحضره فردّ الجارية عليه ووهب له من ثمنها خمسين ألفا فلم تزل عنده مده طويلة. وبلغ عبد الله بن طاهر خبرهما وهو بخراسان، فكتب إلي خليفته بالكوفة يأمره أن ينظر فإن كان هذا الشعر الذي ذكر له من قبل الجارية أن يشتريها له بما ملكت يمينه فركب إلي مولي الجارية فخبره بما كتب إليه عبد الله بن طاهر، فلم يجد سيدها بدّا من عرضها عليه وهو كاره فأراد الأمير أن يعلم ما عند الجارية فأنشأ يقول:

---

[1]– أثبت وجهه : عرّف نفسه .

[2]– أخبار النساء لابن الجوزي ص ١٦٢ – ١٦٣ . وانظر أيضا قصة "وفاة دنانير" لمولاها يحيى البرمكي في باب "وفاء المرأة" في الكتاب الأول من هذه السلسلة.

[3]– نازع : اشتد به الشوق والحنين .

بديعُ حسن رشيق قدّ　　　　جعلتُ منى له ملاذا

فأجابته الجارية:

فعاتبوه فزاد عشقا　　　　فمات شوقا فكان ماذا

فعلم أنها تصلح له فاشتراها بمائتي ألف درهم، فجهَّزها وحملها إلي عبد الله بن طاهر إلي خراسان، فلما صارت إليه اختبرها فوجدها علي ما أراد، فغلبته علي عقله ويُقال: أنها أم محمد بن عبد الله بن طاهر ولم تزل ألطافُها[1] وجوائزها تأتي مولاها الأول حتى ماتت[2].

ومن قصص الحب الإلهي:

أحبك حبين

*عن ذي النون المصري قال: بينما أنا أسير على جانب البحر في الليل إذا أنا بجارية عليها أطمار بالية وهي ناحلة ذابلة، فدنوت منها لسماع ما تقول وإذا هي متصلة الأحزان بالأشجان، وقد عصفت الرياح واضطربت الأمواج، وظهرت الحيتان، فصرخت وسقطت إلى الأرض فأفاقت وهي تقول:

" سيدي.. لك تقرب المتقربون في الخلوات ولعظمتك سبحت الحيتان في البحار الزاخرات، ولجلال قدسك تصافقت الأمواج المتلاطمات.. أنت الذي سجد لك سواد الليل وضوء النهار والفلك الدوار والبحر الزخار والقمر النوار والنجم الزهار، وكل شيء عندك بمقدار لأنك أنت العلي القهار، وأنشدت:

أحبك حبين حب الوداد　　　　وحبا لأنك أهل لذاك

فأما الذي هو حب الهوى　　　　فحب شغلت عمن سواك

وأما الذي أنت أهل له　　　　فكشفك للحجب حتى أراك

فما الحمد في ذا ولا ذاك لي　　　　ولكن لك الحمد في ذا وذاك

ثم شهقت شهقة فارقت بعدها الدنيا. فوقفت متعجبا وإذا بنسوة على أحسن ما يكن من الحالات قد أقبلن وحملنها ثم غبن، وأقبلن بعد أن جهزت فقدمنني للصلاة وهن ورائي فلما فرغت من الصلاة مضين بها.

---

[1]- ألطافها : هداياها .

[2] - روضة المحبين ص ٣٨٦ .

عِيل من حبك صبري

*وحكى سري السقطي[1] رحمه الله، قال: أرقت ليلة ولم أقدر على النوم فلما طلع الفجر صليت، فلما أصبحت دخلت المارستان، فإذا أنا بجارية مقيدة مغلولة وهى تقول:

تغل يدي إلى عنقي — وما خانت وما سرقت

وبين جوانحي كبد — أحس بها قد احترقت

قال: فقلت للقيم: ما هذه الجارية؟ قال: هذه جارية اختل عقلها فحُبست لعلها تصلح فلما سمعت كلامه تبسمت، وقالت:

معشر الناس ما جننت ولكن — أنا سكرانة وقلبي صاحبي

لم غللتم يدي ولم آت ذنبا — غير هتكي في حبه وافتضحي

أنا مفتونة بحب حبيب — لست أبغي عن بابه من براح

ما على من احب مولى الموالي — وارتضاه لنفسه من جناح

قال: فلما سمعت كلامها بكيت بكاء شديدا، فقالت: يا سري هذا بكاؤك من الصفة فكيف لو عرفته حق المعرفة، قال: فبينما هي تكلمني إذ جاء سيدها فلما رأني عظمني، فقلت: والله هي أحق مني بالتعظيم، فلِمَ فعلت بها هذا؟ قال: لتقصيرها في الخدمة وكثرة بكائها وشدة حنينها وأنينها كأنها ثكلى لا تنام ولا تدعنا ننام وقد اشتريتها بعشرين ألف درهم لصناعتها فإنها مطربة. قلت: فما كان بدء أمرها، قال: كان العود في حِجرها يوما فجعلت تقول:

وحقك لا نقضت الدهر عهدا — ولا كدرت بعد الصفو ودا

ملأت جوانحي و القلب وجدا — فكيف أقر بما سكنى وأهدا

فيا من ليس لي مولى سواه — نراك رضيتني بالباب عبدا

فقلت لسيدها: أطلقها وعليّ ثمنها، فصاح: وافقراه من أين لك عشرون ألفا يا سري؟ فقلت لا تعجل عليّ، فقال: تكون في المارستان حتى توفيني ثمنها، فقلت: نعم. قال سري: فانصرفت

[1]- هو سري السقطي أبو الحسن من كبار المتصوفة، بغدادي المولد والوفاة " ٢٥٣هـ - ٨٦٧م . "

وعيني تدمع وقلبي يخشع، وأنا والله ما عندي درهم من ثمنها فبت طول ليلتي أتضرع إلـــى الله تعالى.

فإذا بطارق يطرق الباب ففتحت ودخل عليّ رجل ومعه ستة من الخدم ومعهم خمس بِدر، فقال: أتعرفني يا سرى؟ قلت: لا. قال: أنا أحمد ابن المثني، كنت نائما فهتف بي هاتف وقال لي: يا أحمد هل لك في معاملتنا؟ فقلت: ومن أولى مني بذلك؟ فقال: احمل إلى سرى السقطى خمـــس بدر من أجل الجارية الفلانية فإن لنا بها عناية.

قال سرى: فسجدت لله شكرا وجلست أتوقع طلوع الفجر فلمـــا طلـــع صـــلينا وذكرنـــا وانصرفنا نحوها، فسمعناها تقول:

قد تصبرت إلى أن	عيل من حبك صبري
ضاق من غلى وقيدي	وامتهاني منك صدري
ليس يخفي عنك أمري	يا منى قلبي وذخري
أنت قد تعتق رقي	وتفك اليوم أسري

قال سرى: فبينما أنا أسمعها وإذا بمولاها قد جاء وهو يبكى فقلت: لا بأس عليك قد جئناك برأ مالك وربح عشرة آلاف درهم، فقال: والله لا فعلت ذلك. قلت: نزيدك؟ قال: والله لو أعطيتني ما بين الخافقين ما فعلت وهى حرة لوجه الله تعالى. قال: فتعجبت من ذلك. وقلت: ما كان هـــذا كلامك بالأمس. فقال: حبيبي لا توبخني فالذي وقع لي من التوبيخ كفاني وأشهدك أنى قد خرجت من جميع مالي صدقة في سبيل الله تعالى وأنى هارب إلى الله تعالى فبالله لا تردني عن صحبتك. فقلت: نعم.

ثم التفت فرأيت صاحب المال يبكى فقلت: ما يبكيك؟ قال: يا أستاذي ما قبلني مولاي لما ندبني إليه ورد عليّ ما بذلت، أشهدك أنى قد خرجت من جميع ما أملكه لله تعالى في ســـبيل الله وكل عبد أملكه وجارية أحرارا لوجه الله تعالى.

قال سري: فقلت ما أعظم بركتك يا جارية. قال فنزعنا الغل من عنقها والقيد من وجههـــا وأخرجناها من المارستان فنزعت ما كان عليها من ناعم الثياب ولبـــست خمـــارا مـــن صـــوف ومدرعة من شعر وولت.

قال سرى: فتوجهت أنا ومولاها وصاحب المال إلى مكة فبينما نحن نطـــوف إذ ســـمعنا صوتا فتبعناه فإذا هي امرأة كالخيال فلما رأتني. قالت: السلام عليك يا سرى فقلت لهـــا: وعليـــك السلام ورحمة الله وبركاته من أنت؟ فقالت: لا إله إلا الله وقع الشك بعد المعرفة، فتأملتها فإذا هي

الجارية. قلت لها: ما الذي أفادك لحق بعد انفرادك عن الخلق؟ فقالت: أنسى به وحشتني من غيره ثم توجهت إلى البيت وقالت: إلهي كم تخلفني في دار لا أرى فيها أنيسا قد طال شوقي إليك فعجّل قدومي عليك، ثم شهقت شهقة وخرجت ميتة رحمه الله تعالى عليها. فلما نظر إليها مولاها بكى وجعل يدعو ويضعف كلامه إلى أن خرّ إلى جانبها ميتا رحمة الله عليه فدفنهما في قبر واحد.

بحرمة ما قد كان بيني وبينكم   من الود إلا ما رجعتم إلى وصل

ولا ترحموني نظرة من جمالكم   فلن تجدوا عبدا ذليلا لكم مثلي

فو الله ما يهوى فؤادي سواكم   ولو رشقوه بالأسنة والنبل[1]

لو تاب عليك لتبت

*قال رجلٌ لرابعة العدوية: إني قد أكثرت من الذنوب والمعاصي، فهل يتوب عليَّ إنْ تبت؟ قالت، وهو من نادر القول: لا، بل لو تاب عليك لتبت[2].

كأسي وخمري

*ومن نادر الشعر الصوفي، في الحب الإلهي، قول رابعة:

كأسي وخمري والنديم ثلاثة   وأنا المشوقة في المحبة رابعة

كأسي المسرة والنعيم يديرها   ساقي المدام على المدى متتابعة

فإذا نظرت فلا أرى إلا له   وإذا حضرت فلا أرى إلا معه

يا عاذلي إني أحب جماله   تالله ما أذني لعذلك سامعة[3]

---

[1]- المستطرف ج١ ص٢٤٦ – ٢٤٨ .

[2]- شرح نهج البلاغة ج١١ ص١٨٤.

[3]- شهيدة العشق الإلهي –رابعة العدوية– لعبد الرحمن بدوي ص١٧٣.

المصادر والمراجـــــع

١- أحكام النساء، الإمام أبى الفرج جمال الدين بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، تحقيق زياد حمـــدان ط١، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان ١٩٨٨ .

٢- أخبار النساء في العقد الفريد لابن عبد ربه، جمع وشرح عبد مهنا وسمير جابر، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٩٦ .

٣- أخبار النساء في كتاب الأغاني، عبد الأمير مهنا، ط ا، مؤسسة الكتب الثقافية، بيـــروت، لبنـــان، ١٩٨٨.

٤- أخبار النساء في التراث العربي، ابن الجوزي، تحقيق إيهاب كـــريم، ط ا، دار النـــديم، بيـــروت، لبنان، ١٩٩١،

٥- أدب الدنيا و الدين، الماوردي، تحقيق مصطفي السقا، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، بيروت، لبنان، ١٩٥٥.

٦- أدب الكتاب، ابن قتيبة، تحقيق على فاعور، ط ا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٨.

٧- أعلام النساء في عالمي العرب و الإسلام، عمر رضـــا كحـــال، ٥ج، ط٩، مؤســـسة الرســـالة، بيروت، لبنان، ١٩٨٩.

٨- الأعلام، خير الدين الزركلـــي (ت١٩٧٦م)، ٨ج، ط٦، دار العلـــم للملايـــين، بيـــروت، لبنـــان، ١٩٨٤هـــ .

٩- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني (ت٣٥٦م)، ١٨ج، ٩مج، ط ا، دار إحياء التراث، بيروت .لبنـــان، ١٩٩٤.

١٠- ألف حكاية وحكاية (من الأدب العربي القديم)، حسين أحمد أمـــين، الهيئـــة المـــصرية العامـــة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة القاهرة، ١٩٩٨.

١١- الأمالي، الإمام أبى على القالي، ط٢، دار الحديث للطباعة و النشر، بيروت، لبنان، ١٩٤٨.

١٢- بدائع الزهور في وقائع الدهور، الإمام الشيخ محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، تحقيـــق الـــشيخ خليل إبراهيم، ط٢، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، ١٩٩١.

١٣- البداية و النهاية، ابن كثير، ١٤ج، دار المعارف، بيروت، لبنان، ١٩٩٠.

١٤- البيان و التبين، الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هـــارون، ط٤، مكتبـــة الخـــانجي، القـــاهرة، ١٩٧٥.

١٥- تاريخ الأمم و الممالك، الطبري (ت٣١٠هـــ)، تحقيق محمد أبو الفاضـــل إبـــراهيم،ط٢، ١١ج، ١١مج، روائع التراث العربي، بيروت، لبنان، بلا تاريخ.

١٦- تحقه العروس، محمود مهدي الإستنابولي، ط٦، دار الفكر للنشر والتوزيع، ١٩٨٥.

١٧- تنبيه الغافلين، الليث السمرقندي، ط٢، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ١٩٨٨.

١٨- التيجان، وهب بن منبه، رواية بن هشام، حيدرأباد: ٣باد، ط ا، ١٣٧٤هـــ.
١٩- الجواري، د. جبور عبد النور، ط٢، سلسلة إقرأ.٦ ، دار المعارف، القاهرة.
٢٠- الجواري و الحظايا، جمال بدران، ط١، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٣.
٢١- الحب المثالي عند العرب، د. يوسف خليف، دار قباء للطباعة والنشر و الهيئة المصرية العامـــة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة، القاهرة، ١٩٩٨.
٢٢- حياة الصحافة، محمد يوسف الكاندهلوى، تحقيق الشيخ نايف العباس و محمد علـــى دولـــة،ط٢، دار القلم، دمشق.سوريا، ١٩٨٣.
٢٣- الداء و الدواء، ابن القيم الجوزية، مكتبة التراث الإسلامى، القاهرة، ١٩٨٧.
٢٤- ذيل الأمالي و النوادر، الإمام أبى علي القالي، ط٢، دار الحديث للطباعة و النـــشر، بيـــروت، لبنان، ١٩٨٤.
٢٥- الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، دار السلام، الرياض، ١٩٩٣.
٢٦- روضة العقلاء و نزهة الفضلاء، الإمام أبى حاتم محمد، تحقيق محمد عبد الحميد و محمد عبـــد الرزاق حمزة و محمد حامد الفقي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،١٩٧٧.
٢٧- روضة المحبين و نزهة المشتاقين، ابن القيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان .
٢٨- رياض الصالحين، الإمام أبي زكريا يحي بن شرف النوري، ط١، دار الكتب العلمي، بيـــروت، لبنان ١٩٨٥ .
٢٩- الزهد، الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتاب العربي، بيروت، لبيان ١٩٨٨ .
٣٠- الزهد، حسن البصري، تحقيق د. محمد عبد الرحيم محمد، دار الحديث بالقـــاهرة، ودار الوليـــد بجدة، السعودية.
٣١- السيرة النبوية دروس وعبر، د. مصطفي السباعي، ط٥، المكتب الإسلامي، دمـــشق، ســـوريا ١٩٨٠ .
٣٢- الشعر والشعراء (أو طبقات الشعراء)، ابن قتيبة عبد الله بن مسلم أبـــو محمـــد (ت٢٧٦هـــــ)، تحقيق د. مفيد قميحه، ط٢، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان ١٩٨٥ .
٣٣- شهيرات نساء العرب والإسلام، محمد رفعت، ط١، مؤسسة عـــز الـــدين للطباعـــة والنـــشر، بيروت، لبنان ١٩٩٦ .
٣٤- صحيح البخاري، تحقيق د. مصطفي ديب، ط١، دار ابن كثير، دمشق وبيروت ١٩٩٠ .
٣٥- طرائف النساء في التراث العربي، إيهاب كريم، ط١، دار النديم، بيروت، لبنان، ١٩٩١.
٣٦- طرائف النساء رضا ديب ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٩٠ .
٣٧- العروس المرغوبة، محي الدين محمد عبد الواحد، ط١، الرياض، ١٩٩٦ .
٣٨- العشاق الثلاثة، زكي مبارك، ط٢، سلسلة إقرأ ٢٦، دار المعارف القاهرة .

٣٩- العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي (ت٣٢٧هـ)، ٦ ج ،تحقيق أحمد أمين وإبـراهيم الأبيـاري وعبد السلام هارون، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان ١٩٩١ .
٤٠- عيون الأخبار، ابن قتيبة عبد الله بن مسلم أبو محمد (ت ٢٧٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٨٦ .
٤١- فقه السيرة النبوية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار السلام، القاهرة ١٩٩٤ .
٤٢- فقه اللغة وأسرار العربية، أبو منصور الثعالبي، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، لبنان .
٤٣- قصص الحب العربية، عبد الحميد إبراهيم محمـد، ط١، سلـسلة إقـرأ ٢٨٨، دار المعـارف، القاهرة، ديسمبر ١٩٩٨ .
٤٤- الكامل في التاريخ، ابن الأثير على بن محمد السيباني أبو الحسن، ١٤ج، ١٣مج، دار صـادر، بيروت، لبنان ١٩٨٢ .
٤٥- الكامل في اللغة والأدب، أبي العباس ابن المبرد، مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان .
٤٦- كتاب الأذكياء ابن الجوزي، المكتبة الأموية، عمان، الأردن .
٤٧- كيد النساء (حكايات من ألف ليلة وليلة)، المركز العربي للنشر والتوزيع، الأسـكندرية، بـدون تاريخ .
٤٨- اللؤلؤ والمرجان، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الريان للتراث، دار الحديث، القاهرة، ١٩٨٦.
٤٩- مجمع الأمثال، الميداني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفـة، بيـروت . لبنـان ١٩٩٥ .
٥٠- مختار الأغاني، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بم منظـور الأفريقـي المـصري (ت ٦٦٣٠ - ٧١١)، ط١، ١٢ج، ١٩٦٤ .
٥١- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، ترتيـب محمـود خـاطر، الهيئـة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٧ .
٥٢- مروج الذهب ومعادن الجوهر، الحسين بن علي المسعودي (ت٣٤٦هـ)، ٤مج، محمد محيـي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، بلا تاريخ .
٥٣- المستطرف في كل فن مستطرف، شهاب الدين محمد بن أحمد أبى الفـتح الأبـشيهي المحلـي، تحقيق عبد اللطيف سامر ودياب محمد خضر، ط١، مؤسسة التاريخ العربي، بيـروت، لبنـان، بلا تاريخ .
٥٤- مسند الإمام أحمد بن حنبل، دار صادر، بيروت، لبنان .
٥٥- مصارع العشاق للشيخ أبى محمد جعفر ابن أحمد الحسين الـسراج، القـاهرة، مطبعـة التقـدم ١٩٠٧.
٥٦- معجم الشعراء، المرزباني أبي عبد الله محمد بن عمران (ت ٣٨٤) ط١ مكتبـة القـدس، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٢ .

٥٧- معجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ط٤، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٩٩٤ .

٥٨- مكارم الأخلاق، الإمام أبي بكر أبي الدنيا، تحقيق محمد عبد القادر، ط١، دار الكتــب العلميــة بيروت، لبنان ١٩٨٩ .

٥٩- مواقف من حياة النساء، عماد حسن الشافعي، ط١، مكتبة الإيمان، المنصورة، ١٩٩٥ .

٦٠- موسوعة الزواج الإسلامي، الشيخ عبد الحميد كشك، المختار الإسلامي للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة .

٦١- نساء نزل فيهن قرآن، عبد العزيز الشناوي، ط١، مكتبة الإيمان، المنصورة، ١٩٩٢ .

٦٢- وفيات الأعيان، ابن خلكان، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٨٦.

محتويات الجزء الثاني

الموضوع	الصفحة